محمد عفيفي

إبتسم من فضلك



أخبار اليوم

إدارة الكتب والمكتبات



ادارة الكتب والمكتبات

الغلاف بريشه الفنان مصطفى حسين
الاخراج : اسامة أحمد نجيب

« محمد عفيفي الكاتب الساخر »

* لماذا كانت تغلق الصحف التى عمل بها . هل كان قدم نحس على تلك الصحف ؟

* حرافيش القاهرة وباريس .

* أوصى بعدم نشر نعيه فى الصحف .. حتى لا يمحو الابتسامة التى رسمها على أفواه القراء .

* « تمارا » اسم التدليل لشجرة « التمرحنة »

« البطاقة العائلية »



اسم الشهرة	: محمد عفيفى
الاسم بالكامل	: محمد حسين عفيفى
تاريخ الميلاد	: ٢٥ فبراير ١٩٢٢
جهة الميلاد	: قرية الزوامل ـ مركز انشاص ـ محافظة الشرقية
المؤهل الدراسى	: ليسانس الحقوق ١٩٤٣ ـ دبلوم الصحافة ١٩٤٥
الحالة الاجتماعية	: تزوج يوم عيد ميلاده ١٩٥٠ من السيدة اعتدال الصاق وانجب ثلاثة أبناء : الدكتور طبيب عادل ، والمهندس نبيل وعلاء المحامي .
تاريخ الوفاة	: ٥ ديسمبر ١٩٨١

« الفتى الريفى »

ولد الكاتب الساخر محمد عفيفى فى قرية الزوامل - شرقية . ونشأ فى القاهرة

فقد نزحت أسرته إلى القاهرة واقامت فى حى روض الفرج فى شارع المقسى - شبرا مصر

ولما تخرج فى الجامعة .. اقام بمفرده فى مسكن بشارع أحمد كامل قريبا من شارع الملك فيصل الآن بالهرم

وعندما تزوج انتقل إلى مدينة حسن محمد القريبة من المسكن الاول

ثم انتقل إلى حى الزمالك حيث اقام فترة قصيرة . عاد بعدها إلى شارع الأهرام . حيث شيد فيلا فى شارع مدكور . مازالت تقيم فيها الأسرة إلى اليوم

« رحــلات صـحـفية »

— بدأ حياته الصحفية بإصدار مجلة باسم « القصة » لم تستمر طويلا . فاتجه إلى العمل بالصحف

— التحق محررا بدار مسامرات الجيب . وكتب فى المجلة التى كانت تصدرها باسم « إضحك » .

— وانتقل منها إلى العمل محررا بمجلة « آخر ساعة » حين كان يصدرها محمد التابعى

— ولما انتقلت ملكية المجلة إلى « أخبار اليوم » . انتقل معها واصبح محررا فى « أخبار اليوم » ابتداء من أول يوليه ١٩٥٠ حتى ٣١ مارس ١٩٦٤

— وفى أول إبريل ١٩٦٤ انتقل إلى « دار الهلال » وظل يعمل

محررا في صحفها إلى ٣١ مايو ١٩٧٤

— وفي اول يونيه ١٩٧٤ عاد إلى قواعده في « أخبار اليوم » التي ظل يعمل بها حتى نهاية العمر في ديسمبر ١٩٨١

* اشهر الابواب التي حررها في الصحف هي

— « هذا وذاك » في « أخبار اليوم »

— « للكبار فقط » في « الأخبار »

— « يوميات » و « ابتسم من فضلك » في « اخر ساعة »

— « بيني وبينك » بتوقيع « واحد » في « الكواكب »

« كاريكاتوريات »

ويعتبر من بين مبتكري أفكار الشخصيات الكاريكاتورية . حيث كان عضوا في لجنة الكاريكاتير باخبار اليوم

وجسد أفكاره بالرسوم الكاريكاتورية الرسامون صاروخان ومحمد عبد المنعم رخا وعبد السميع عبد الله وزهدي وبهجت عثمان ومصطفى حسين ومحمود ورؤوف عبده

أصدر العديد من المؤلفات . التي كان من بينها القصة والرواية والمسرحية

— « أنوار » ـ مجموعة قصصية

— « التفاحة والجمجمة » ـ مسرحية

— « بنت اسمها مرمر » ـ قصة

— « فنتازيا فرعونية » ـ قصة

— « شلة الحرافيش » ـ قصة

— « سكة سفر » ـ قصة

— « تائه في لندن » ـ قصة

— « ابتسم من فضلك »

— « ابتسم للدنيا »

— « ضحكات عابسة »

— « ضحكات صارخة »

— « للكبار فقط »

— « تراتيل في ظل تمارا » ـ صورة قلمية

« أعمال درامية »

ـ تحولت بعض هذه المؤلفات إلى مسلسلات إذاعية وأعمال مسرحية وسينمائية

فاخرجت مسرحية « التفاحة والجمجمة » في مسلسل إذاعي ومسرحية وفيلم سينمائي . وكذلك قصة « بنت اسمها مرمر » التي اخرجت في فيلم سينمائي

فقد انتج أحمد مظهر مسرحية « التفاحة والجمجمة » لحسابه الخاص في عمل مسرحي من إخراج السيد راضي قام فيه بدور البطولة في شخصية المهندس احمد . أمام سهير البابلي في شخصية « زازا » ومحمد توفيق في شخصية « المعلم طلبة »

كما أخرجها محمد أبو سيف في فيلم سينمائي قام فيه حسن يوسف بتمثيل دور المهندس أحمد . امام إيمان في دور « زازا » وأنور إسماعيل في دور « المعلم طلبة » وإبراهيم نصر في دور « كرشة »

وأخرجت قصة « بنت اسمها مرمر » في فيلم من إخراج بركات وتمثيل محمود يس وسهير المرشدي وصلاح منصور

كما ساهم فى كتابة برنامج « ساعة لقلبك » الاذاعى .

« التفاحة والجمجمة »

وقصة « التفاحة والجمجمة » قصة رمزية تقوم فكرتها عن الصراعات الدولية من أجل بسط السلطة والنفوذ .

وهى قصة مجموعة من الناس كانوا يستقلون سفينة غرقت بهم فى البحر بجوار جزيرة مهجورة ، تمكنوا من الوصول إليها والاقامة فيها ، وهم « المهندس أحمد » والفتاة الجميلة « زازا » و « المعلم طلبة » وتابعه « كرشة » وفتى أسمر اسمه « توتو » .

ويتنازع الجميع على أمرين .. هما المرأة والسلطة . وأيهم يفوز بالمرأة والسلطة .

فالسلطة تكون فى يد من يحمل السلاح ، الذى يكون فى البداية فى حيازة المهندس الذى امسك بالخنجر ، ثم يتنقل بين أيدى المعلم طلبة وتابعه كرشة تارة أخرى .

ويظل الصراع محتدما بين الجميع حتى يتمكن المهندس من صنع قارب خشبى يعود بهم إلى الوطن .

أما قصة حكاية « بنت اسمها مرمر » فتدور حول فتاة عاشقة طموحة للتعليم ، يفرض عليها الزواج من رجل متقدم فى السن بدل فتى الأحلام .

وبعد الزواج تمنع من إتمام دراستها الجامعية وتبقى سجينة القفص الذهبى ، لكنها تثور على هذه الحياة الخاملة الرتيبة ، عندما تكتشف أن الزوج خدعها وتزوج غيرها ، وأصبحت لها ضرة .

فطلبت الطلاق ، واستعادت حريتها ، لتعتمد على نفسها فى الحياة .

« ترانيم فى ظل تمارا »

وصدر كتاب « ترانيم فى ظل تمارا » بعد وفاته . وكان قد تركه بلا عنوان ، فعهدت أسرته إلى صديق عمره نجيب محفوظ باختيار العنوان المناسب .

وقد ذكر زعيم الحرافيش ظروف اختيار العنوان فقال :

— كتب محمد عفيفى هذا الكتاب وهو فى انتظار الموت .. وذلك بعد أن أخبره الأطباء بقرب النهاية ، وهو عبارة عن تأملات شاعرية ، وصوفية ، مكتوبة بسخريته وفكاهاته المعروفة والمعتادة .

وبلغت هذه الكتابات الذروة فى الجمال ، والذروة فى الاستشفاف بالروحانية ، وعمق النظرة المطلقة للكون والحياة ، وانا اعتبر هذا الكتاب ديوان شعر جميلا وحساسا .

إنه تامل من يقترب من الموت وينتظره .. تامل فى حياته الماضية وفى تجاربه ، وفى كل مايدور حوله .

لقد كان محمد عفيفى متعودا أن يعرض علينا نحن « الحرافيش » نجيب محفوظ وأحمد مظهر وعادل كامل كل ما يكتب قبل أن يلقى به إلى المطبعة . ولكنه فى هذه المرة لم يخبرنا عما يكتبه ، كنا نذهب إليه يوميا ، ولم نعرف شيئا عن هذا الكتاب .

وبعد انتقاله إلى رحمة الله عرضت أسرته علينا « مجموعة الحرافيش » ما كتبه ، وكان قرارنا جميعا هو أنه لابد من نشره ، وكنت أرى أن ينشر فى « أخبار اليوم » حيث تعود محمد عفيفى أن يكتب وأن تنشر كلماته ، ولكن كان لأسرته رأى آخر ، ونشر الكتاب خارج « أخبار اليوم » .

شجرة التمرحنة

وتمارا هى شجرة التمرحنة فى حديقة الكاتب الساخر .

فقد كتب عنها قائلا :

— جلست على الكرسى القش الأصفر العتيق ، مستظلا بظل صديقتى العزيزة تمارا ، التى من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء ، وتنفرش حولى مثل قروش فضية متراقصة ، على النجيلة الخضراء التى تكسو الأرض حولى .

وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الأبيض - الغامق إذا جاز التعبير - وفوقها كوب الشاى الخزف الكينى ، الذى انكسرت أذنه من زمان ، فحمدت الله على الخلاص منها ، وقرش فضى سقط على سطح الشاى ، متلاعبا كأنه عين تغمز ، سيكون لطيفا أن أذوق شايا بنكهة من نور الضحى .

هنا أحب الجلوس فى هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف ، حيث أحظى من الشمس بدفئها دون لسعتها ، فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحتها ، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب والنهار يسلم المفاتيح للمساء ، وأمينة دهشت عندما أخبرتها للمرة الأولى منذ سنوات أننى أسميت هذه الشجرة تمارا ، ولكنها لم تلبث أن قالت معترفة :

— طب والنبى لايق عليها .

فقلت لها شارحا تلك التسمية :

— شجرة تمرحنة ح أقول لها يا إيه ياتمارا .

— ماانت لازم تناديها باسمها .

— طبعا علشان تعرف أنى باكلمها هى .

وكانت أمينة تعرف أننى أحب أن أكلم الأشجار ، وغير متوقع

منها أن ترد على طبعا ، فاكتفيت على سبيل التعليق أن تصمت وقالت مازحة :

— ربنا يكملك بعقلك .

« الحـــرافيش »

وقد اشتهر محمد عفيفى بانتمائه إلى شلة « الحرافيش » التى كونها نجيب محفوظ فى الأربعينات .

* كتب جمال الغيطانى فى كتاب ، نجيب محفوظ يتذكر ، عن مولد جماعة الحرافيش وقتئذ فى مقهى عرابى بالعباسية ، فقال :

— عام ١٩٤٢ ، تكونت مجموعة من الأصدقاء الذين حصلوا على الجوائز الأدبية لمجمع اللغة العربية ، كانت تضم الروائى القدير عادل كامل ، صديق عُمْر نجيب محفوظ ، والذى هجر الأدب بعد أن قدم أعمالا أدبية ناجحة ، مثل « مليم الأكبر » ورواية « ملك من شعاع » ، وعلى أحمد باكثير ، ويوسف جوهر وحسين عفيف ، ونجيب محفوظ .

وبحكم أنهم حصلوا على جائزة واحدة ، وكانوا قد اجتمعوا لاستلامها وارتبطوا بعلاقة صداقة وتعارف ، عرف نجيب محفوظ عادل كامل لأول مرة ، ويوسف جوهر ثم مرت الأيام ، واستمرت علاقة نجيب محفوظ بزميله الروائى عادل كامل ، أما الآخرون فقد ذهب كل منهم إلى حاله .

واقترح عليه نجيب محفوظ أن يلتقيا فى مقهى عرابى بالعباسية صباح كل جمعة ، ورد عادل كامل قائلا أنه يعرف جماعة منهم بعض معارف نجيب محفوظ مثل أحمد زكى مخلوف وأمين الذهبى .

واقترح عادل كامل أن يسهر نجيب محفوظ معهم كل يوم خميس ، وبدأ بالفعل يتردد على هذه الجماعة للسهر ولكن لم يكن

مواظبا على كل خميس .

في سنة ١٩٤٣ تكونت ندوة مقهى الأوبرا . وكان يحضرها عادل كامل . وقد استمرت ندوة الأوبرا حتى عام ١٩٦٢ . وكنت أتردد عليها صباح كل جمعة حيث نلتقى بالأديب الكبير . وأكرر أنها كانت ندوة حية . وربما كانت آخر الندوات الأدبية الكبيرة في القاهرة .

كانت جماعة عادل كامل التى تجتمع وتسهر مساء كل خميس . تضم أحمد مظهر . وكان أحمد مظهر ضابطا في الجيش وقتئذ . وكان صديقا للروائى عادل كامل . وكان هناك أيضا موظف اسمه محمود شبانه . كان في وزارة المالية .

وانتظم نجيب محفوظ في هذه السهرة .

يقول كاتبنا الكبير :

— سمينا هذه السهرة الحرافيش . انضم اليها البعض . ومات البعض من الذين انضموا في فترة مبكرة بعد أن تكونت . محمد عفيفي وأصبح بيته في الهرم مقرا للسهرة . ثم انضم إلينا توفيق صالح المخرج . ومعه صلاح جاهين . ومصطفى محمود .

وكان أحمد بهاء الدين . يزورنا من وقت إلى آخر . وطبعا كان هناك بهجت عثمان الرسام . ازدهرت السهرة . وكان شعارها (الفن والضحك) مرت علينا حرب فلسطين ولم نتغير . علقنا على الحرب . وناقشناها . قامت ثورة ٢٣ يوليو ولم نتغير

استمرت السهرة أيضا . واستمر شعارنا مرفوعا . الفن والضحك لم يتغير . كان التاريخ الذى نعيشه ينعكس على احاديثنا وتعليقاتنا . لم يتغير اى شىء حتى جاء يوم الاثنين الخامس من يونيو .

« الهزيمة كاملة »

يذكر نجيب محفوظ أن يوم الخامس من يونيو كان يوافق يوم الاثنين . وكان الحرافيش كلهم مدعوين يوم الخميس التالى في حفل زفاف صلاح جاهين الذى دعاهم قائلا :

— فرحي يوم الخميس القادم يا إخواني . وانتم وحظكم بالنسبة للحرب . إذا قامت أو لم تقم .

وحدث أن نشبت الحرب . ولم نذهب الى فرح صلاح جاهين . وتغيرت سهرة الحرافيش تماما .

● يقول نجيب محفوظ :

— كان موضوع السهرة . الفن . والضحك . والسياسة . تغيرت وأصبحت السياسة هى المحور الاول والأخير . كنا أحيانا نسهر ونضحك حتى تؤلمنا عظام صدورنا . بعد الخامس من يونيو لم نكن قادرين أبدا على الضحك .

ولكن نجيب محفوظ هجر عادة البسبوسة تماما . ومع صعوبة الذهاب إلى سهرة اصدقاء الطفولة في العباسية . انقطعت عادة الكباب أيضا . في نفس الوقت كان الزمن يداهم شلة « الحرافيش » إما أن يسافر احدهم . أو يرحل رحيلا أبديا . حتى كان رحيل محمد عفيفي . وهنا فقدت الحرافيش المكان القديم حيث كانت تعقد .

انتقلت الجلسة الى بيت الفنان أحمد مظهر عضو الحرافيش القديم . ولكن مظهر يسافر أحيانا . في مساء هذا الخميس بدا نجيب محفوظ وبهجت حائرين . إلى أين ؟ وكيف يمضيان السهرة معا . وكانا في هذه الليلة هما الحرفوشين الوحيدين . والباقى إما في سفر . وإما في عمل . فكر نجيب محفوظ قليلا . ثم قال لبهجت

— ما رايك فى الذهاب إلى حلوان ، ومفاجاة جمال الغيطانى فى البيت ؟

وكان من بين الحرافيش طبيب من الارياف اسمه الدكتور محمد انيس منير ، كان نجيب محفوظ يطلق عليه اسم تشيكوف لانه اشتهر وقتئذ بترجمة قصص تشيكوف .

« تخليص الابريز فى تلخيص باريس »

و « الحرافيش » جمع « حرفوش » ويطلق فى العادة على « الصعاليك » .

وعندما كتب عنهم نجيب محفوظ .. صورهم فى شخصيات ابناء البلد الفتوات الذين يهبون لنجدة الضعفاء .

● لكن الحرفوش احمد مظهر قال لنا :

— إننا اخذنا اسم « الحرافيش » من كتاب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » للشيخ الباريسى رفاعة رافع الطهطاوى ، فقد تحدث فى هذا الكتاب عن مقاهى باريس وذكر انها نوعان ، مقاه يجلس عليها علية القوم ومقاه يجلس عليها « الحرافيش » اى بسطاء الناس .

فقلنا « نحن بسطاء الناس » وعلى هذا الأساس اقتبسنا اسم جماعتنا « الحرافيش » .

كما كانت الندوة تنتقل الى بيتى فى مصر الجديدة ، حيث كنت اقيم هناك فى شارع الحلمية فى فيلا ذات حديقة تتوسطها فسقية .

وهى نفس الفيلا التى شهدت فيما بعد لقاءات الضباط الأحرار .

وانتقلنا بعد ذلك الى كازينو اوبرا ، حيث انضم إلينا محمد عفيفى الذى كان وقتئذ حديث التخرج فى كلية الحقوق .

واذكر أنى التقيت فى الندوة بالشاعرة السورية وداد سكاكينى وزوجها زكى المحاسنى .

وفى ذلك الوقت كنت ارتدى الزى العسكرى ، فقدمنى إليهما نجيب محفوظ على أنى ضابط وشاعر قائلا :

— أحمد حافظ مظهر رب السيف والقلم .

فصدق الضيفان على هذا التقديم قائلين :

— اننا قرانا شعره ، وهو شعر رصين .

وكان هذا الرأى سببا فى هروبى من ندوة يوم الجمعة ، حتى لا يطلبا منى إلقاء مختارات من شعرى .

وفى هذه الندوة تابعنا المذاهب الأدبية الجديدة فى أدب الوجودية ، واللامعقول ، و « العبث » .

« الندوة التيمورية »

وعلى ذكر ندوة « الحرافيش » فى كازينو اوبرا ، نذكر ندوة أدبية اخرى كانت تقام هناك فى نفس الوقت ، وهى ندوة الروائى الكبير محمود تيمور ، التى كانت تجتمع فى المساء ، على عكس ندوة الحرافيش التى كانت تجتمع فى الصباح .

فقد كان تيمور يدعو أصدقاءه الأدباء والفنانين على العشاء فى ركن الكباب بالطابق الثانى بالكازينو .

وكان بين هؤلاء الأصدقاء الشعراء : خليل مطران واحمد رامى وعلى محمود طه وصالح جودت وعبد الرحمن الخميسى وأحمد فتحى . والأدباء : محمد شوقى امين ومحمد امين حسونة ومحمود عزى وكامل عجلان وفتحى ابو الفضل ومحمد السيد شوشة والمستشرق الانجليزى مستر ديفيز صاحب مجلة « اصوات » ونزيه الحكيم الاديب العراقى .

ومن الفنانين : زكى طليمات واحمد علام وعلى طبنجات .

« الوصـــية »

وعندما توفى الكاتب الساخر صاحب كتاب « ابتسم من فضلك » لم يشأ أن يمحو الابتسامة التى رسمها على أفواه الناس ، فأوصى الأسرة بعدم نشر نعيه فى الصحف .

وهذا نص الوصية

● عزيزى القارىء :

يؤسفنى أن أخطرك بشىء قد يحزنك بعض الشىء وذلك باننى قد توفيت . وانا طبعا لا اكتب هذه الكلمة بعد الوفاة (دى صعبة شوية) وإنما اكتبها قبل ذلك . واوصيت بأن تنشر بعد وفاتى . وكذلك اوصيت بالا ينشر نعيى فى الوفيات بالطريقة التقليدية . وذلك لاعتقادى بأن الموت شىء خاص لا يستدعى ازعاج الآخرين بإرسال التلغرافات والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالى العزاء .

وإذا أحزنتك هذه الكلمات . فلا مانع من أن تحزن بعض الشىء . ولكن أرجو الا تحزن كثيرا .

بهذه الكلمات المنشورة . كتب محمد عفيفى وصيته . وتم تنفيذ الوصية بالفعل . فلا نعى . ولا عنوان للعزاء . ولا عزاء اقيم تسلل خارجا من الحياة فى هدوء .

● وقد سجل رحلة حياته بقلمه . فقال :

— قصة بالغة الاثارة والسخرية : بدأت المأساة كلها فى عام ١٩٤٣ .. إذ تخرجت فى كلية الحقوق فسولت لى نفسى الصحفية أن التحق بمعهد الصحافة بكلية الآداب .

سنتان قضيتهما فى ذلك المعهد . ودرست فيهما اللغة العربية

والانجليزية وفن الترجمة وعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ . ثم منحونى الدبلوم وفى نفسى شعور غريب بأن هناك شيئا ناقصا . إذ قلت لهم وانا اعبث بورقة الدبلوم فى عصبية ظاهرة :

— الله . هوه خلاص كده

فقالوا لى :

— آه .

فقلت :

— يعنى موش ح تعلمونى صحافة .

فتبادلوا نظرات الدهشة ومصمصوا شفاه الاستنكار لهذا البطر الشديد من ناحيتى ثم انفجروا قائلين :

— يا جدع انت خلى عندك دم . نعلمك تاريخ وجغرافيا وإنجليزى وعربى وكل ده موش مكفيك .

وفى شارع الجامعة الطويل سرت متجها إلى الترام . قلت لنفسى مفكرا :

— واحد زيك عنده دبلوم الصحافة العالى يعمل ايه ؟

قالت لى نفسى فى استهجان لهذا الغباء المطلق :

— شىء غريب يا أخى .. يفتح مجلة طبعا .

فما هى إلا شهور قليلة حتى كنت قد فتحتها ـ لوحدى كده والله ـ وكانت مجلة تدعى « القصة » وهدفها بالطبع تثقيف الناس قبل تسليتهم وتعليمهم كيف تكتب القصة الفنية الجيدة .

عقبة بسيطة صادفتنى فى بداية الأمر فى شكل التباس حدث بينى وبين صاحب المطبعة . إذ طلبت طبع غلاف لمجلة قصصية فأخطأ السمع وطلب غلافا يصلح علبة حلاوة طحينية .

ولكن هذا اللبس البسيط لم يكن ليثبط من عزيمتى .

ولكننى فى السنة التى عاشتها المجلة لاحظت ظاهرة غريبة نوعا - بالنسبة لى على الأقل - وهى ان الشعب لا يريد ان يتعلم ، فصارت امامى مشكلة افدح بكثير من مشكلة كيف اوزع المجلة وهى ماذا افعل بالنسخ التى لم توزع .

فإذا انا وضعتها بالعرض لاحتجت إلى استئجار مالا يقل عن فدان ، وإذا وضعتها بالطول .. لاحتجت إلى عمارة من اربعة طوابق وليس بينها سقوف .

المهم اننى فى بحر سنة كنت قد خسرت الجلد والسقط ، وماذا يفعل صحفى خسر جلده وسقطه سوى ان يبحث عن وظيفة عند صحفى اخر مازال محتفظا بهما

● ويضيف الكاتب الساخر محمد عفيفى قائلا :

— كان الصحفى الذى وقع عليه اختيارى هو الأستاذ محمد التابعى ، إذ قرات فى الصحف إعلانات كبيرة عن مشروع تجديده لمجلة « اخر ساعة » ، فلم اكذب خبرا ، وسرعان ما كنت جالسا امامه اطلب وظيفة بصفتى صاحب مجلة ذل .

وكان الأستاذ التابعى ، جنتلمان ، كعهده ، فآوانى بين صفحات « اخر ساعة » الجديدة مكلفا إياى بعمل لا ادرى لماذا توسم فى اننى سوف احسنه ، وهو تقديم افكار صور الكاريكاتير التى كان يرسم معظمها الرسام صاروخان .

وكنت عند حسن ظن الأستاذ التابعى ثلاثة شهور ، وفجأة سمعت ان « اخر ساعة » سوف تباع بكامل محتوياتها إلى دار « اخبار اليوم » وان اصحاب « اخبار اليوم » فعلا يتسلمون المبيعات ، فاخذوا كل شىء فى المجلة ماعدا كنبتين وانا .

مجلة أضحك

● ويستطرد محمد عفيفى قائلا :

— والتحقت بعد ذلك بعمل جديد فى مجلة « اضحك » التى كانت تصدر عن دار مسامرات الجيب ، سنة كاملة قضيتها فى هذه المجلة ، وكنت على استعداد لأن اقضى سنة ثانية وثالثة ، لولا أن ذلك كان متعذرا نوعا بسبب انه من الصعب على الانسان ان يشتغل فى مجلة بعد ان يقفلها صاحبها .

وامام باب الدار المغلقة قلت لنفسى :

— الحق مايكسفش ياواد ، انت نحس .

واستبدت بى الفكرة لدرجة اننى فكرت فى استغلالها ماديا ، فلماذا لا اذهب مثلا إلى رئيس جريدة المصرى التى كانت تنمو وتزدهر فى ذلك الوقت واقول له :

— تدفع لى كام واشتغل لك فى الأهرام ؟

بل خطر لى أن استغل هذه الموهبة الهدامة فى نطاق دولى فاشتغل فى جريدة التايمز لمصلحة الجارديان أو العكس ، هكذا حتى اغلق نصف الدور الصحفية فى العالم .

واخيرا وانا لا اخلو من شعور غريب وتانيب شديد قلت :

— ليه يا واد ماتروحش للتابعى تانى .

وامام باب مكتبه وقفت انتظر نتيجة البطاقة التى ادخلها له الفراش ، لكن التابعى قال لى :

— اطلع لمصطفى امين ، انا كلمته علشانك .

هكذا بدون ان اقول له لماذا اتيت ، وبدون ان يكلفنى مؤونة الطلب . واستلمت عملى فى « اخبار اليوم » وسرت فى طرقاتها وانا لا اخلو من شعور غريب وتانيب شديد ، إذ اقول لنفسى :

— دار حلوة زي دي ، موش حرام تقفلها يا واد ؟

ومضت شهور وانا انتظر قفل المؤسسة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، مرة واحدة احسست بقرب ثمار نحسى العتيد عندما سمعت طرقا شديدا على سقف الطابق الثاني ولكنني كنت مخطئا إذ كانت تلك الطرقات لبناء ثالث ورابع وحتى تسعة .

ولا ادرى ان كان نحسى قد زال ، او ان سعد « اخبار اليوم » قد غلب عليه .

وانتهى النحس وبدات رحلة محمد عفيفي مع النجاح .

« فكرة »

● ورثاه مصطفى امين في باب « فكرة » ، فقال :

مات محمد عفيفي الكاتب الساخر الذى كان يضحك الملايين ، الذى كان يرسم ابتسامة حلوة على الشفاه الحزينة ، الذى كان يضحك الثكلى ويحول المأساة الى مهزلة .

عرفته سنوات طويلة عندما قدم اغرب طلب استخدام في تاريخ الصحافة . كان طلب الاستخدام هو نكتة كنت انا ضحيتها .

بدا عمله معى بخطاب يسخر فيه من كل صفحة في « اخبار اليوم » و « آخر ساعة » .

كان لا يعجبه شيء فينا ، يهزا بالكبار ويسخر من العمالقة ، ويخرج لسانه لكبار الكتاب . ووجدت في نقده لنا شيئا جديدا ، يجرح دون ان يسيل دما ، ويهزا بنا ويثير ضحكاتنا ، ودعوته للقائي ، وعينته على الفور محررا في « اخبار اليوم » .

وكانت في « اخبار اليوم » لجنة لوضع النكت تتالف من علي امين ورخا وصاروخان ومني ، ثم انضم إلينا مامون الشناوى وجليل البندارى ، ثم انضم إلينا محمد عفيفي .

وكانت مهمتنا ان نضحك ، وهي مهمة ثقيلة مرهقة إذا عرفت اننا نضحك بمواعيد محددة ، فنضحك يوم السبت لنختار نكتة مجلة « آخر ساعة » التي تصدر يوم الاربعاء ، ونضحك يوم الاربعاء لنبتكر النكت التي تنشر في « اخبار اليوم » يوم السبت .

وحدث مرة أن ماتت أمنا التى كنا نحبها حبا يشبه العبادة ، واضطررنا عقب تشييع الجنازة ان نذهب مباشرة من المدفن الى « اخبار اليوم » لنضع افكار النكت لمجلة « آخر ساعة » .

وكان موقفا مفجعا ان نجلس لنحاول إضحاك القراء ، وقلب اخي وقلبي ينزفان دما ، ولم يستطع الرسام رخا ان يحتمل هذا الموقف فانفجر في البكاء .

و في العام الماضي اصيب محمد عفيفي بمصيبة ، فقد ساءت صحة ولده وانهار الكاتب الضاحك ، وكان يحرص على حضور اجتماع النكت و في عينيه كل ما في الدنيا من دموع .

وكان اشبه بتمثال للألم والعذاب ، ومع ذلك كان يقدم افكار النكت التي تضحك القراء ، كان يهزا بالحماة وهو يحب حماته ، وكان يسخر من شباب الجيل ، وقد استطاع ان يربي اولاده كاحسن ما يكون الشباب .

وكان يلعن الزواج وهو من اسعد الأزواج . ثم اصيب بالسرطان في حنجرته وعجز عن الكلام . ومع ذلك استمر يرسل افكار النكت إلى رخا ليرسمها في « اخبار اليوم » ويرسل النكت إلى الرسام مصطفى حسين ليرسمها في صفحة « ابتسم من فضلك » في « الاخبار » .

كانت كلماته تضحك و في حنجرته ماتم . حاولت افكاره دائما ان تخفي عن القراء عذابه والامه ودموعه .

ورفع سماعة التليفون في بيته لانه لا يستطيع ان يتكلم مع احد ،

ورفض ان يستقبل اصدقاءه لأنه تعود أن يسعدهم بفكاهاته ،
ولم يشأ ان يشقيهم بحالة مرضه المتدهورة .

وأوصى الا ينشر نعيه ، لأنه لم يشأ أن يرسم نعيه دمعة واحدة فى العيون التى ملأها بالبسمات .

« زعيم الحرافيش »

● وكتب نجيب محفوظ عن أدبه وفنه وسخريته ، فقال : يتسع المجال ويترامى لمن يريد أن يكتب عن محمد عفيفى . فقد كتب القصة القصيرة ببراعة وفنية . وله فى شكلها تجربة أسلوبية متميزة ، وكتب الرواية العاطفية والرمزية فاجاد وأبدع وألف مسرحية إذاعية متنوعة .

ونهل من بحر الثقافة بعمق وشمول وقام فى ذلك برحلة طويلة بدءا من التراث وحتى أحدث ما تموج به من تيارات فكرية وفنية واجتماعية .

ومع ذلك فقد عرف بالكاتب الساخر وغلبت كتاباته الساخرة على جميع كتاباته سواء ما نشر منها فى الصحف والمجلات او ماظهر فى الكتب .

ولم يتقرر ذلك اعتباطا ولكن استنادا إلى رؤية قوية ثابتة تغلغلت فى أعماقه حتى صارت طبيعة ثانية له ، أو قل هى طبيعته الأولى ، فمنذ زمن مبكر جدا اكتشف عبثية الوجود والمجتمع ، وتابعها بعين متفحصة فى الطبيعة والعلاقات الاجتماعية والتقاليد البشرية والحياة اليومية .

وكان ذلك جديرا بان يخلق منه مفكرا متجهما كابى العلاء المعرى او شوبنهور ، او اديبا غاضبا مثل بيكت ، ولكن طبيعته الدمثة اللطيفة الودودة ، اختارت له أن يمضى كاتبا ساخرا ، وأن

يعبر عن سره الدفين بالدعابة والنكتة والملحة ، وأن يشيع البهجة والابتسامة بديلا عن الحزن والأسى .

وباختصار أن ياوى الى فندق الأنس العامر بالأرواح المتمردة الضاحكة من أمثال الجاحظ والمازنى والريحانى وشارلى شابلن ، أولئك الذين صمموا على ارتقاء ذروة السخرية ، وذلك بتحويل فراغ الحياة وعنائها إلى أفراح ومسرات متحدين الأقدار راقصين فى رحاب الفناء .

وكانت السخرية محور حياته ، ينبض بها قلبه ، ويفكر بها عقله ، وتتحرك فيها ارادته فهى ليست بالثوب الذى يرتديه عندما يمسك بالقلم وينزعه إذا خاض الحياة ، ولكنها جلده ولحمه ودمه وأسلوبه عند الجد والهزل ولدى السرور والحزن .

فما من شىء إلا ويثير السخرية ، غير انها سخرية تتنوع وتتلون بحسب المقامات والاحوال ، من أجل ذلك شعرنا نحن اصدقاؤه باننا نعاشر عبقريته فى كل حين ، لا حين نقرأ له صورة او كتابا .

ومن اجل ذلك ايضا سما بفنه إلى ارفع مستويات الادب . وقد كنت انوى ان أكتب عن محمد عفيفى الصديق ، ولكنى انسقت إلى الكتابة عن الفنان هربا من مطاردة الذكريات الملحة ، وتجنبا للانغماس فى احلام حلوة ، لم تعد حلوة ، وأحاديث ضاحكة هانئة انقض فيهما وحش المرض المفترس على شيخ الساخرين فلم يهزم روحه الخالدة ، ولكنه هزم اصدقاءه المحبين الذين احاطوا به ينظرون محزونين مذهولين يائسين لا يجدى حبهم الكبير فى دفع اذى او تخفيف الم او بث عزاء .

وبعد ، ايها الصديق الراحل .. فلن اقول لك ـ ومعى كل الحرافيش ـ وداعا ولكنا نقول معا كما اعتدنا أن نقول اخر كل سهرة : وإلى اللقاء .

« آخر الكتاب الساخرين »

● وكتب أحمد بهجت يقول :

— مات الكاتب المصرى الساخر « محمد عفيفى » .

لم أكن من أصدقائه ، ولكنى كنت من قرائه ، ولم اره فى حياتى غير مرة واحدة او مرتين ، ولكننى احسست فى هاتين المرتين اننى امام إنسان صافى الرقة وفيه صدق .

كان نحيلا ، انيق العبارة منطويا على نفسه ، كما كان خجولا وغير مقتحم ، وكنت اتابع معظم كتاباته وابتسم ، ثم لاحظت فى الفترة الأخيرة أن سماء افكاره تضم سحابات رمادية توحى بالانقباض والكآبة .

ورغم مرضه الاخير ، فقد ظل يمسك قلمه ويكتب ، ولقد نجح المرض فى أن يحجز صوته عن الناس ، ولكن الكاتب قاوم آلامه وظل يمسك قلمه بشجاعة نادرة حتى اللحظات الأخيرة .

واقتربت نهايته من صورة جندى أصيب فى الحرب فظل يحارب وينزف فوق سلاحه حتى اغمض الموت عينيه .

وفى الفترة الأخيرة ، كان يبدو لقرائه كمن يبتسم الما ، وبانتهاء صفحته ، يختفى أستاذ فى مدرسة الساخرين ، وهى مدرسة يتساقط اساتذتها تحت عجلة الزمن ، ويوشك هذا الفن أن ينقرض من حياتنا .

والأدب الساخر هو الصورة المتطورة لأدب الهجاء الذى عرفه العرب فى بداوتهم ، ولهذا الفن تقاليد فى الأدب العربى والأدب المصرى على السواء .

فى القرن التاسع عشر جدد احمد فارس الشدياق بمقاماته هذا

الفن . وفى القرن العشرين حمل لواءه الشيخ عبد العزيز البشرى والأستاذ ابراهيم المازنى ، وبيرم التونسى وعبد الحميد الديب وكامل الشناوى .

ومن الأدب الساخر خرج الأدب الفكاهى ، فحمل لواءه من الشعراء عبد السلام شهاب وحسين شفيق المصرى ، ومن الناثرين حمل اللواء يحيى حقى .

وفى هذه المدرسة تربى مجموعة من الشباب ، من بينهم عباس الأسوانى ومحمد عفيفى وأحمد رجب ومحمود السعدنى .

ثم كبر هذا الشباب واكتهل ، وهاهو ذا واحد منا يجمع أوراقه وينصرف .

والاصل ان السخرية موقف نقدى ، ولكنه موقف يتجاوز الهجاء ببداوته وخشونته ، ولا يخرج على الناس بمرارة أحزانه العارية ، إنما يرتدى فوقها اقنعة من الابتسام او عباءات من الضحك .

ومعظم الادباء الساخرين يروعهم كبشر ـ هذا الفرق بين ماهو كائن وما ينبغى ان يكون ، أو يروعهم الفرق بين الصوت والصورة .. أو بين الكلمة والفعل .. اى ان فيهم مثالية نظرية .

حتى لو كانت طبيعتهم تنزع نحو ماهو كائن ، إلا ان حلمهم دائما يستشرف افاق ماينبغى أن يكون .

وفى الكتاب الساخرين من تغلب عليه المرارة ، ومنهم من يظل محتفظا بصفائه ، ولكنهم جميعا ينظرون إلى الدنيا بعين تضحك وعين تبكى .

المكتئب

وقال نصفه الثانى الرسام الكاريكاتورى محمد عبد المنعم « رخا » :

— ان محمد عفيفى كان زميلى فى اخبار اليوم وجارى فى المسكن ،

حين كنا نقيم في مدينة حسن محمد في شارع الهرم

● هل أوحت لك شخصيته ببعض الشخصيات الكاريكاتورية ؟

— ينبغي أن تعلم أن الكاتب الساخر محمد عفيفي صاحب كتاب « ابتسم من فضلك » لم يكن يبتسم إلا على الورق .

الشخصيات التي اوحاها لي هي شخصيات الرجل المفلس او المريض المكتئب .

مهرج السيرك

● وكتب عنه الرسام الكاريكاتوري مصطفى حسين ، فقال :

— تركني اخي الكبير محمد عفيفي ورحل في هدوء ، وآثر ان يمضي دون أن يزعج احدا ، رغم ماله في نفوسنا جميعا من ديون كثيرة لا تقدر بمال ، فكان يعتصر كي يضحكنا ، ووضع بصماته الواضحة على هذه الصفحة منذ صدورها .

وعلمنا ان نبتسم في بابه « ابتسم من فضلك » .

ولكن كيف نبتسم الآن ؟

إن الصحافة طاحونة ، لا تقف عجلاتها ابدا ، ولابد من ان نمسح دموعنا ونلهث وراء المزيد لإطعام هذه الطاحونة .

ولابد من واحة ظليلة باسمة للقارىء وسط قيظ أحداث هذه الدنيا ، وذلك يذكرني بقصة مهرج السيرك الذى مات ابنه الوحيد ، ولكن لابد له من تقديم نمرته ، فمسح دموعه وراح يلون وجهه بالأصباغ ويرسم على وجهه ابتسامة حتى اذنيه .

وسنمسح دموعا غالية على محمد عفيفي .. استاذ الابتسامات ، ونمضي في سيرك الدنيا الكبير .

« المعتزل »

وكتب الكاتب الاديب محمد فهمي عبد اللطيف :

فقد الفنان الموهوب رزء فادح ، فإن الفنان الموهوب يمثل بين الناس معنى من معاني الانسانية ، يحدوهم إلى الخير وينشدهم نشيد الحب ، ويبعث فيهم نشوة الامل والتفاؤل بالحياة .

ولقد كان « محمد عفيفي » فنانا موهوبا ، كان اديبا وكاتبا ، وكان فنانا فيما يكتب ، فنانا في فهمه للناس والحياة ، ولكنه كان ينظر إلى مافيه الناس وما تجرى به الحياة فيفزع ، انه لا يرى خيرا ولا حبا ولا املا ، وإنما هي معركة يتقاتل فيها الناس بالظفر والناب ، وما هو اقسى من الظفر والناب ، ومن هنا كان اسلوبه الفني مع الناس هو الفكاهة ، وهو السخرية ، وهي ارقى أساليب الفكاهة ، وتلك هي الصفة التي امتاز بها محمد عفيفي ، وفيها كانت كل براعته الفنية .

والسخرية ليست كل غايتها الضحك والتسلية ، والهزر ، ولكنها اسلوب للتقويم والتهذيب والكشف عن حقائق الناس والحياة ، ورؤية الأمور في وضعها الصحيح . ولهذا كله عاش هذا الفنان الساخر يناضل الزيف والتزوير والتلفيق في أوضاع الحياة ويدعو الناس الى الخير والحب والأمل والتفاؤل بالحياة .

وكان في سخريته رقيق الشعور مرهف الاحساس ، يسخر من الكبار والصغار ولكن في رفق وعذوبة ، حسبه ان يهز النفس ويثير الانتباه ، ويفتح ذهن السامع لفهم أعمق للحياة .

وكانت مأساة هذا الفنان الساخر ضعف أعصابه ، ولهذا فرض على نفسه العزلة ، فكنت تراه بين الناس صامتا ، قليل الكلام ، غارقا في التامل .

حسبه أنه ينصت ، ويسمع ويرى ، وبهذه العزلة أخذ نفسه فى بيته ، لا يهمه شأن هذا البيت ، ولا شأن أولاده فيه .

ولقد هيأ لنفسه مكانا خاصا فى البيت يلتقى فيه باخوانه الخلصاء من اسبوع لأسبوع ، وفى هذه العزلة ودع الحياة وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة .

« موقف كريم »

ذكرت له الزميلة إحسان عبد الغفار موقفا كريما ، حين فرضت الحراسة على أسرتها وعاشت بعد ذلك فى ضائقة مالية .

وفى أثناء ذلك الوقت استدعتها السيدة صفية المهندس وطلبت منها المساهمة فى برنامج « المرأة » الذى كانت تقدمه فى الاذاعة بكتابة بعض الخواطر مقابل مبلغ شهرى خفف عنها تلك الضائقة .

ثم علمت بعد ذلك أن الكاتب الساخر محمد عفيفى كان وراء تلك اللفتة الكريمة .

« نوادر وطرائف »

● وقدمت الكاتبة سناء فتح الله نماذج من سخرياته اللاذعة ، فقالت :

— عندما أراد أن يطرح موضوع الانفجار السكانى مثلا فى كلمات قال :

● أفكارهن :

(الحمد لله على أن الرجال لايستطيعون قراءة أفكار النساء .. ألا يكفينا فى كل ٢٧ ثانية من الزمن طفل واحد) .

وعندما تكلم عن الموت ، قال :

اسباب الموت :

إذا مات رجل مدهوسا تحت سيارة ، فلن يعدم شخصا يعلق على ذلك الموقف قائلا ليلقى اللوم على الميت :

— حد قال له ما يشوفش العربية .

وإذا نزل الى البحر للسباحة وغرق فلن يعدم من يقول :

— حد قال له ينزل البحر وهو مش اده .

وإن اصيب بسرطان الرئة ومات فلن يعدم بالطبع من يقول :

— حد له قال يشرب سجاير ؟

فإذا أوى الرجل الى فراشه واختبأ تحت اللحاف ، واذا بالمنزل يهتز وينهار فوق دماغه ، فلن يعدم - برضه - من يقول :

— حد قال له يسكن فى بيت أيل للسقوط ؟

فإذا كان انهيار المنزل راجعا إلى زلزال شديد دمر منازل الحى كله فلن يعدم من يقول :

— حد قال له يعيش فى منطقة فيها حزام زلازل ؟

فإذا عاش الرجل مائة عام وهو فى اتم صحة وعافية إلى أن وجدوه ذات صباح ميتا بحكم الشيخوخة ، فإن الأمر سيكون محيرا بالنسبة لذلك المعلق الآخر .

ولكنى لا أشك فى أنه سوف يجد كلمة يفسد بها جلال الموقف ، وذلك بأن يقول فى تحد وازدراء :

— حد قال له يتولد .

صالون أخبار اليوم

ومن بين طرائف الكاتب الساخر محمد عفيفي ايضا ، انه كتب فى يوميات « أخر ساعة » مداعبة لزميله الصحفى محمد السيد شوشة ، حيث كان يجمعهما معا صالون حلاقة الاسطى حسين صبرى حلاق « اخبار اليوم » .

— كتب فى هذه الدعابة يقول :

— ان شوشة زبون مريح فى الحلاقة ، ما ان يسمع طرقعتين او ثلاثا من مقص الحلاق حتى يذهب فى نوم عميق .

وذات مرة فوجيء الأسطى حسين بعد عودته إلى بيته ، بجرس التليفون يدق ، فرفع السماعة .وقال :

— آلو .

وإذا به يسمع صوت شوشة من الطرف الأخر . فقال له :

— عايز إيه ياأستاذ شوشة . انا مش حلقت لك خلاص ؟

فرد شوشة قائلا :

— ايوه . بس انت قفلت على الصالون وانا نايم ، ارجوك تعالى بسرعة أفتح الباب .



« الناشر »

ابتسم من فضلك



مقدمة لا لزوم لها !

اعتقد انك سوف تحب هذا الكتاب اذا كنت تحب الاشياء التالية : الاطفال والقطط والملوخية الخضراء ! وسوف يزداد حبك له اذا كنت تهوى التطلع الى السحب البيضاء فى سمائنا الزرقاء ، والى الخضرة الضاحكة فى حقول البرسيم ، حين تتناغم مع الزرقة الباسمة فى حقل الكرنب . فإذا كنت تحب الاناث ، فلن تعدم فى هذه الصفحة أو تلك انثى تحاول ان ترضى مزاجك ، ابتداء من الملكة نفرتيتى الحالمة وحماتها الافعوانية ، الى الشغالة المعاصرة التى اكتشفت سيدتها انها مصابة بالغريزة الجنسية .

ولعلك تحب ان تعرف اجابات بعض الاسئلة التى تبدا بلماذا ومتى وكيف ، فلماذا يدخن الناس ، او لماذا يتصافحون ، وكيف تشترى خروف العيد او تهرب من منادى السيارات ، ومتى يجوز للسيدة المهذبة ان تهرش واين ، وما الى ذلك من التساؤلات التى يبذل الكتاب جهودا متواضعة للاجابة عليها .

فإذا اضفت الى ذلك كل ما يزخر به الكتاب من الدواجن كالديوك والفراخ والارانب ، ومن الفزدق والمانجة الهندى ، ومن الملوخية والخروف اللذين سلفت الاشارة اليهما ، فاعتقد انه لايسعك سوى الاعتراف بأنه من النادر ان يقع القارىء على كتاب يتضمن كل هذه القيمة الغذائية !

وهكذا وقبل ان تشرع فى القراءة .. لا اجد ما اقوله لك سوى : ألف هنا وشفا !

(م . ع)

فضيحة فى المرام

هذا عيب الجلوس فى قهوة هى فى الوقت نفسه بار ، ذلك الشعور الشديد بالاخوة البشرية الذى تخلقه زجاجة البيرة الثانية فى نفس شاربها ، فيشرع فى الدردشة البريئة مع جاره الذى لم يشرب أكثر من فنجان قهوة .

ـ الله يجازى الشيطان .. هم سموه شيطان من شوية ؟

وسعل جارى وبصق على الارض ، ونظر الى عبر زجاجه البيرة يناشدنى ان أسأله عن السبب فيما قال . فخطر لى أول الأمر ان اتجاهله واكتفى على سبيل التعليق بتلك البسمة الفاترة المزمومة المثبطة ، لكننى ملأت عينى من منظره فصعب على . كان وجهه الاسمر رقيق الملامح وديعا ، وشعره ضاربا الى البياض بالرغم من انه لايمكن ان يكون قد بلغ الخمسين . وثيابه وان لم تكن رثة كل الرثاثة ، الا انها ـ مما لا يقبل الشك ـ لم تعرف طريق المكوجى منذ أسابيع ، مثل حذائه الذى لابد انه قد نسى شيئا اسمه الورنيش .

البدلة والحذاء قد اخذهما فى اغلب الظن من احد الاقارب المتيسرين ولكنه ـ ذلك القريب الطيب ـ لم يشفعهما بمصاريف الصيانة ، أو شفعها بها ولكن هذا الرجل يفضل زجاجة من البيرة على حذاء لامع .

ـ ياريتنى مشيت على رجليه . ياريتنى ماركبت يومها الترماى . . كان زمانى دلوقت قاعد على مكتب وحاطط رجل على رجل . . الله يخرب بيتك ياترماى تلاتين ! تصدق يابيه انى كان فاضل لى شهرين واثبت ؟

ولعله رأى فى عينى نظرة مستريبة فقال مستدركا :

ـ مانا بكالوريا ولو انه موش باين على . . وكله من ركوبة ترماى .

وصفق يطلب زجاجة بيرة ثالثة ، وكان مما طمأننى اليه هذه الدقة الشديدة التى يغرس بها الشوكة فى حبات الفول النابت ملتقطا اياها من صحن المزة الصغير ، عزيز قوم فيما يبدو ثم ذل .

ـ كنت رايح فين يومها يا ابراهيم والله مانا فاكر . . اهه طلعت فى ترماى تلاتين وكانت ساعة مغربية . . قبل المغربية بشوية . . لحظة قشطة والله يابيه . . لحظة قشطة .

لابد اذن ان الحكاية عن بنت ، لحظة القشطة مضافة الى ما سلف من اشارته الى الشيطان .

ـ انا واقف كده جت وقفتها جنبى . . وكانت معاها ست تخينة كده طلعت امها . .

ما تزيدش عن سبعتاشر تمنتاشر سنة . . بياض وحمار وشعر أسود

زى الحرير . . الغرض . .

وميل الزجاجة يملأ الكوب بالسائل الكهرمانى الفوار ، خيل الى انه سيطفح ولكنه توقف عند حافة الكوب بالتمام . سكير محنك ، واثق بعمله ، فلا بأس بأن أستمع فى اطمئنان الى قصته .

ـ الترمايات طبعا على بعضها وخصوصا تلاتين . . ولا البيه عنده عربية !

خطر لى ان أقول له انها عندى ولكننى أنكرت ، من ناحية لكيلا أبدو فى صورة الرجل المتباهى ، ومن ناحية أخرى لانها لم تكن طول الوقت عندى ، ولذلك فأنا الآخر أعرف ترمواى تلاتين جيدا . .

ـ بشرفى يابيه ما كان قصدى . انا مادد ايدى عشان امسك الحديدة . . ماخدتش بالى إنها ماسكاها من قبلى . . شوف يابيه . . انا كده وهى كده والحديدة كده . .

ولست ادرى لماذا تلعثم فى الكلام عندما وصل الى شرح هذه الصورة الجغرافية ، فلم أفهم منه الا انه كان ـ كما قال ـ كده ، والبنت كده والحديدة كده . المهم انه عندما قبض بيده على الحديدة قبض معها فى الوقت نفسه على أصابع البنت التى كانت تمسك الحديدة من قبله .

ـ وبالامارة كان فى صباعها خاتم حسيت بيه تحت صوابعى .

فأصابتنى خيبة أمل مفاجئة ، اذ خيل الى انه سيروى لى تلك القصة القديمة عن الرجل الذى اتهم بالنشل وهو من التهمة برىء .

ـ بشرفى يابيه ما كان قصدى . . بشرفى . . لكن اهه ده اللى حصل . . لقيت ايدى بدل ماهى ماسكه الحديدة ماسكه أيدها . .

كويس لغاية كده ؟

وسكت لحظة ليكمل النقص الذى فى الكوب بالسائل الكهرمانى الفوار .

ـ أنا طبعا شلت ايدى على طول .. دورت على حته فاضية فى الحديدة .. الدنيا زحمة والبيه عارف ترماى تلاتين .. وشويتين والاقى ايد البت اتزحلقت ولمست ايدى .. زى ماتكون بتقول بعدت ايدك ليه ياواد ..

وجرع ما فى الكوب وانزله على رخامة المائدة بطرقة شديدة للمرة الاولى . ولكن تلك النظرة الوديعة مابرحت موجودة لحسن الحظ فى عينيه .

ـ ادى الحديدة وادى ايدها وادى ايدى ..

ومن جديد تعثر فى شرح الوضع الاقليمى ، ولكننى فهمت ان يده كانت فوق يدها على الحديدة . وانه فوجىء بدافع شيطانى يهيب به ان يرفع احدى صوابعه فيضعها فوق أقرب أصبع له من يد البنت .

ـ هم سموه الشيطان من شوية ؟! .

اذ انه بعد ان وضع تلك الاصبع ورأى ان البنت لم تبعد أصبعها ، تجرأ ووضع على يدها أصبعين لا أصبعا واحدة ، الأمر الذى لم تكترث به البنت ايضا .

ـ بشرفى يابيه كانت بتضحك كمان .. اصل أمها كانت بعيدة .. تايهه فى الزحمة وانت عارف ترماى تلاتين .. بشرفى كانت بتضحك

وبذل جهدا يائسا يصور لى تلك البسمة الغامضة التى تلاعبت على شفتى البنت ، بسمة هادئة تدل على رضاها بمجريات الامور ، وعلى انها ليست اقل سعادة منه بملامستها لأصابع هذا الرجل الغريب .

ـ صحيح مابصتليش ابدا لكن ده موش مهم .. سيادتك عارف عينين الستات .. عمرها ماتيجى فى عينيك ابدا .. انا كده وهى كده ووشها كده ..

كان موجها للطريق طول الوقت ، وجه البنت ذات الابتسامة المعنوية الراضية ، ونظرة ساهمة فى العيون السود تتطلع الى مناظر الطريق فى تجاهل لليد التى تطبق على يدها ، وفيها ـ نظرة البنت ـ نفس مافى شبح ابتسامتها من رضاء .

ـ الله يجازى الشيطان .. هم سموه شيطان من شوية ؟

اذ سول له الشيطان ان يتدرج بأصابعه على اصابعها حتى أصبحت يده كلها مطبقة على يدها ، بل انه بأصبع واحدة حنون راح يتحسس جزءا من معصمها .

ـ كانت لابسة ساعة ؟

هكذا سألته .. فصوب الى بعينيه الغائمتين نظرة عتاب .

ـ واناح آخد بالى يابيه ؟ احنا ف ايه ولا ف ايه ؟

وجرع من الكوب ومسح الزبد الابيض عن شفتيه .

ـ برضه لا شالت ايدها ولا كأنها هنا .. مع انى كنت ماسكها كده .. تسمح ايدك ؟

فناولته يدا مترددة متشائمة وضعها على الرخامة الساقعة وضغط

عليها مثلما ضغط فى ذلك اليوم المشئوم على يد البنت .

ـ بذمتك دى ماحسش بيها ؟

ـ دى لازم وجعتها ..

ـ وبشرفى يابيه كانت بتضحك .

ونشوة عجيبة غمرته وقد احتوت يده على يد البنت ، هناك حيث وقفا فى زحام ترمواى تلاتين .

ـ الشيطان وحش .. واولاد الحلال كتير ..

ونفخ الرجل ساخرا ، ورفع الكوب بشدة من على رخامة المائدة وصوت يصيح به قائلا :

ـ سيب ايد البنت ياقليل الحيا ! دى ماتجيش اد بنتك !

وظهرت الام البدينة فجأة من جوف الزحام ، سائلة بالحمية المناسبة اليس له بنات او أخوات ؟ وأصوات كثيرة تدخلت فى المناقشة ، أصوات أولاد الحلال الذين أعلنوا استعدادهم للذهاب الى القسم لكى يشهدوا فى صالح الضحية البريئة .

ـ ياناس ما هى قدامكم .. اسالوها .. انا اذيتك فى حاجة يابنتى ؟

فقطرت من عينيها دمعه وقالت انها كانت تحاول طول الوقت ان تنزع يدها وهو يمنعها ، فما اسكتها عن الصراخ الا خوفها من الفضيحة .

وكان هذا نفس الكلام الذى رددته فى القسم وأيدته شهادة اولاد الحلال .

ـ ست اشهر يابيه .. ست اشهر عشان ايد بنت .. خرجت

لقيت نفسى فى الشارع .. وش سجون ..

فتشاءمت من جديد وقد توقعت طلب احسان ، أو على الاقل مطالبة لى منه بأن أدفع الحساب . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وصفق الرجل مطالبا بالزجاجة الرابعة وهو يدس يده فى جيبه ويخرج جنيها مطبقا وبعض الفكة .

ـ بشرفى يابيه بكالوريا .. وكان فاضل لى شهرين واثبت .. ماتاخد لك كباية يابيه ..

فشكرته ونهضت مستأذنا فى الانصراف .

ـ اوعى أكون دوشتك ..

فانكرت ذلك وابتعدت اقصد الى الباب ، ومن هناك التفت لكى ارى زبونا جديدا يحتل مقعدى الذى خلا ، وصاحبنا يلتفت اليه بذات العين الوديعة التى فيها نظرة مناشدة .

عن السحاب والبحر

لست ادرى ماذا جرى للسحاب ، قطعا وجزما قد جرى له شيء خطير .

ذات يوم كان لا يمكن لسحابة ان تمر أمامى ـ هناك فى الاعالى الزرقاء ـ دون ان تشرع من فورها فى التشكل فى صورة تفتنى أو تدهشنى أو على الاقل تسليني . هى أحيانا أرنب كبير أبيض ، طويل الاذنين ملفلفل نافش الشعر ، ومكان العين من رأسه ثغرة زرقاء يرمقنى بها ويرد على نظرق بنظرة حب واضحة .

وهى أحيانا بجعة بيضاء خرافية الحجم ، ويقع رمادية هنا وهناك فى الجناحين المطويين على ظهرها . فأما رقبتها فطويلة رشيقة مثل كل رقاب البجع ، مائلة الرأس نحوى لترمقنى هى الاخرى فى محبة ، بتلك الثغرة الزرقاء الواقعة فى رأسها مكان العين .

ولربما انقسمت السحابة الكبيرة الى قطع صغيرة وتحولت أمام ناظرى الى سرب حمام كامل ، أبيض ناصع ، فرحان ، يطير فى

الاعالى الزرقاء دون ان يتجشم ضربة جناح واحدة . فهو يسبح أكثر منه يطير ، أو قل يطفو اذا شئت ان تتوخى الدقة الكاملة .

ولكن تلك الاشكال الحيوانية لم تكن كل ماعند السحاب من الصور ، فمن السحاب ما كان اكثر ميلا الى الناحية الحسية من الحياة . ما أحلاها تلك السحابة التى تشكلت فجأة ـ ذات يوم ـ فى صورة بنت حلوة لا أدرى لماذا أميل الى الظن بأنها ليست حلوة فحسب ، وانما عذراء ايضا . شيئا فشيئا تتشكل أمامى كأننى اشاهد عملية خلقها ، يرتفع منها الصدر ويستدير من اعضائها ما يجب ان يستدير ، وذراعان طويلتان تبسطهما حوضا وتمدهما نحوى داعية إياى الى أحضانها . عندئذ اقول لنفسى انها ـ استنادا الى تلك الجراة ـ لا يمكن ان تكون عذراء ، ثم لا ابرح ان اقول ومن الذى يكترث ؟ متى كان لفضائل البشر واخلاقياتهم قيمة فى دنيا السحاب ؟ انما يهمنى من الامر انها تحبنى ، ولقد كنت واثقا بأنها تحبنى ، هناك حيث تطير ـ أو تسبح او تطفو ـ فى السماء الفسيحة الزرقاء . ولذلك تصيدت من الريح نسمة تدفعها نحوى ، لكى ترمقنى بنفس المحبة التى رمقتنى بها البجعة ومن قبلها الارنب ، ولكى تقول لى بالذراعين المبسوطتين تعالى ياروحى .

نعم كان يحدث احيانا ـ انا أعترف ـ ان تتشكل سحابة اخرى فى شكل ذكر غريب قليل الادب ، بطريقة او اخرى ينجح فى ان يلحق بالبنت الحلوة ويلتحم بها ـ أمامى فى الاعالى الزرقاء ، ولكن هذا كان أمرا نادر الحدوث . وحتى فى المرات القليلة التى حدث فيها كنت الحظ على البنت امارات واضحة من الاعتراض والاستنكار ،

ولمسة من الاستشهاد فى استسلامها للذكر السماوى الوغد .

دعك بالطبع من الصور التجريدية التى كان يرسمها لى السحاب مئات المرات ، وخاصة اذا كان الوقت ساعة الشفق . مابين الاصفر والاحمر والبنفسجى ومئات الظلال المرتعشة المتعانقة فى موكب الالوان أرى لوحة أسمها المجد ، أو الجمال أو المحبة أو الامل أو اى كلمة اخرى من الكلمات الحلوة النابعة من ضمير الانسان . وكورال ملائكى اكاد أقسم اننى اسمعه فى السماء ، زفة مقدسة تدور هناك عند ذلك الافق الغربى الفاقع .

نعم كل هذا كان يفعله السحاب أمام عينى ، فعلى رأى ابى لمعة الاصلى : انتو شفتوا سحاب ؟ السحاب ده كان على أيامنا احنا !

ارنب واحد لم أره فى السماء منذ سنين وسنين ، ولابجعة ولاحمامة ، والبنت الحلوة مبسوطة الذراعين اما ماتت واما تزوجت وقعدت فى البيت . كف السحاب عن لهو زمان وتجسد فى صورته الحقيقية المملة الجامدة ، كمية من بخار الماء علقت بكمية من ذرات الغبار الى حين ، ولسوف تبخرها الشمس بعد هذا الحين فتصبح لاشىء ، أو يمسها تيار كهربى مفاجىء فتصبح شيئاآخر ، كمية من المياه تنسكب من السماء فى المكان الذى ـ كالمعتاد ـ لايحتاج اليها .

وعلى الشاطىء ادركت ان شيئا قد حدث للبحر أيضا ، وانه لم يعد ذلك البحر الذى عرفته طول عمرى . نعم هو مازال أزرق ، ولكنها ليست زرقة زمان ، تلك الزرقة الزرقاء التى كانت تثير فى نفسى الف حلم وامنية ، وهدير أمواجه لم يعد هو الآخر نفس الهدير ، فقد لسبب آخر موسيقاه القديمة وأصبح مجرد ضجيج .

فكأنه لم يعد شيئا سوى حوض كبير لتربية الاسماك ، علما بأنني افضل السمك النيلي .

وناظرا الى السطح الازرق اجدني أغوص بخيالي الى الاعماق حيث بلايين الاسماك التي لا وظيفة لها ـ فيما أتخيل ـ سوى ان تأكل بعضها البعض . فهو يتحول وفقا لذلك من بحر الى ميدان قتال ، وتلك الزرقة الجميلة ما هي الا غطاء يحجب مأساة كبيرة دامية . فأتصعب وانظر الى السماء قائلا يارب ! الم يكن في الامكان جعل السمك يتغذى بشيء يغنيه عن التهام بعضه البعض ؟ ولكنني لا البث ان اتنهد في استسلام واقول انها لابد مأساة حتمية لا مفر منها ، لسبب يشبه السبب الذي من اجله يجب ان تموت انت ـ ولا خليها اموت انا ـ بالشيخوخة بعد عمر طويل . وعلى العموم فلست اظن ان ايامنا ـ السمكة أو انا ـ يتألم عند موته اكثر مما يتألم جهاز الراديو حين تقفله وسط أغنية مطربة . ومعذرة حتى أعرف لماذا ينادونني من آخر المنزل . .

انا ـ ايه ؟

هم ـ السمك استوى قم اتغدى !

فعن اذنك .

سبب التدخين

ناظرا الى آلاف السجاير المتدلية من افواه الناس في الطرقات . . تخيلت مدى الحيرة التي لابد ان تصيب كائنا من المريخ لوأنه نزل الى الشارع الارضي ورأى ذلك المنظر . فليس من شك في انه سوف يتلفت حوله باحثا عن رجل طيب وحكيم يمكنه ان يفسر له ذلك اللغز ، ومن يكون ذلك الرجل الا انا ؟

ـ ما هذه الاشياء الطويلة التي تتدلى من افواهكم ؟

هكذا يسألني في براءة مريخية عذبة ، فأروح أشويه حينا بنظرة أرضية ساخرة :

ـ هي سجائر .

ـ وما هي السجائر ؟

ـ حزر . .

فأنا بالطبع لا يمكن ان أفشي له أسرارنا الأرضية بهذه السهولة ، وجدير بي ان اقضي بعض الوقت في الفرجة عليه وهو يقدح زناد مخه المريخي الحيران .

- استنادا الى كل هذا الدخان المتصاعد من تلك الاشياء اعتقد انها لاتخرج عن كونها مواسير لطرد العادم .

استنتاج لابأس به كما ترى ، ولكنه يرسم على وجهى اعرض ابتساماتى مع محاولة لمنع نفسى من القهقهة مجاملة للزائر الكونى .

- يؤسفنى ياسيدى انك قد اخطأت فى الاستنتاج ، اذ ان لنا - نحن البشر - طريقه مختلفة كل الاختلاف فى التخلص من العادم ، تلك الطريقة التى أرجو ان تعفينى من شرحها لك فى الطريق العام .

فيضرب المريخى بيده على جبينه ، وهذا بالطبع اذا كان لأهل المريخ جبين .

- اذن ماهى تلك الاشياء ؟

- هى كما قلت لك سجائر .

- هل هى مثلا نوع من الغذاء ؟

- كلا طبعا .

- هل هى مفيدة للجسم بطريقة من الطرق ؟

- بالعكس هى مضرة لامفيدة .

واشرح له كل ما اعرفه عن العلاقة بين السجائر وسرطان الرئة وبينها وبين ضغط الدم وتصلب الشرايين ، وكيف ان كل سيجارة يدخنها الرجل تختصر من عمره شيئا . وفى خلال هذا الشرح أكون قد اخرجت من جيبى علبة السجائر واشعلت واحدة .

- اتعرف كل هذه الاضرار عن السجائر ومع ذلك تدخن ؟

فانفخ فى وجهه نفسا .

- حاولت الامتناع عنها فلم انجح .

- لماذا ؟

- لان من يعتادها يصبح عبدا لها ، عن طريق عنصر اسمه النيكوتين يألفه الجسم فلا يستطيع الاستغناء عنه .

- ولماذا بدأت التدخين اصلا ؟

- لا اذكر بالضبط اذا كان ذلك لكى اقلد أبى أو لكى اتحداه ، أو لكى اثبت لبنت الجيران اننى قد أصبحت رجلا ، فتقبل الخروج معى وهى تتوقع - استنادا الى ذلك - فسحة مشبعة .

فيبدأ فى شد شعره ، وهذا بالطبع اذا كان لأهل المريخ شعر .

- ولكنك تعرف ان السجائر مضرة .

- نعم .

- وكلكم تعرفون ذلك ؟

- نعم .

- ومع ذلك تدخنون ؟

- نعم .

- لماذا بحق توتو ، لماذا ؟

ومستنتجا ان توتو هذا لابد ان يكون الها او قديسا مريخيا أرى من واجبى ازاء هذه اللهفة من ناحيته ان أخبره بكل ما أعرفه من تفسير ظاهرة التدخين .

- يقول احد علمائنا واسمه سيجموند فرويد اننا ندخن لاننا كنا نرضع .. أتعرف ما معنى نرضع ؟

- نعم قرأت عن ذلك فى تسجيلاتنا عنكم ، ولكننى لا ارى علاقة واضحة بين الامرين .

- يقول العالم المذكور ان عادة الاغتذاء عن طريق الامتصاص تترك فى نفس الرجل مهما كبر حنينا دائما الى الثدى . ونظرا لأنه من الصعب على الرجل البالغ ان يجد مرضعة ، فانه يلجأ الى السجارة كبديل للثدى المفقود ، او الى البايب أو الجوزة أو الشيشة ، وذلك وفقا لما ترسب فى ذهنه الطفولى من انطباعات ثدييه .

- تفسير غريب بعض الشىء .

- هذا صحيح ، تماما كالتفسير الأخر الذى قدمه نفس ذلك العالم .

- فماذا قال ؟

- قال ان النار رمز جنسى على المستوى العام للذهن البشرى ، ومن ثم فان السيجارة المشتعلة ترضى صاحبها بما تشيعه فى فمه لاشعوريا - من مذاق جنسى رمزى حيث يتعذر الحصول على الجنس الفعلى .

- هذا تفسير لايقل عن الأخر غموضا .

- ومع ذلك فلا شك ان الجنس يغنى عن التدخين ، بدليل انى لا أذكر انى مارست الجنس فى أى يوم من الايام وفى فمى سيجارة .

وأمام تنهيدة اليأس التى يطلقها رجل المريخ أقول له مواسيا :

- على أى حال انت لست ملزما بقبول هذه التفسيرات ، وفرويد على وجه العموم لم يعد يعتد بكلامه كثيرا ، بعد ان قال الماركسيون انه بورجوازى ، وقال صبرى جرجس انه صهيونى ، وقال مصطفى محمود انه حمار . . ما عاد احد يحتاج الى فرويد الا عندما تنفصم شخصيته اويصاب بالهستيريا أو البارانويا فيذهب الى المحلل

النفسى الذى يعالجه وفقا للاسس الفرويدية .

- كل هذا لايشرح كيف يعتمد الكائن العاقل استخدام شىء يعرف انه يؤذيه .

- يظهر اننا لن ننتهى من سيرة فرويد !

- ماذا قال ثانيا ؟

- قال ان فى اعماق النفس البشرية شيئا اسمه غريزة الموت ، وان فى كل الكائنات العضوية رغبة كامنة فى الارتداد الى الحالة اللاعضوية التى كانت عليها قبل ان يتدخل من الظروف ما أقلق راحة ذرة الكربون . فلعل تلك الغريزة موجودة حقا ، ولعل التدخين وما اليه من العادات الضارة ما هو الا صورة مخففة لتلك الغريزة .

- اذا كان الامر كذلك فلماذا لاتنتحرون وتريحون انفسكم مرة واحدة ؟

- كثيرون منا يفعلون ذلك فى بعض اللحظات المدلهمة .

- اعنى لماذا لا تنتحرون انتحارا جماعيا يريح هذا الجنس المريض كله ؟

- اعتقد ان شيئا لم يمنعنا من ذلك ، الا اننا لم نكن نملك الوسائل اللازمة . فبالرغم من كل الحروب التى خضناها والدماء التى سفكناها لم تكن أسلحتنا تكفى الا لقتل الاقليات المحظوظة . ولكن الحال قد تغير والحمد لله بعد اكتشاف الاسلحة النووية . الم تسمع عنها ؟

- سمعت طبعا وهى أحد الاسباب التى جعلت حكومتنا ترسلنى هنا

ـ تلك القنابل على ما يقولون تكفى لمحو كافة أصناف الحياة من على وجه الأرض .

ـ فاذا صح ما قيل عن غريزة الموت فسوف تسجل مراصدكم ذات يوم نوعا طريفا من الالعاب النارية والتفجيرات المطربة .

ـ اتعتقد انهم سوف يستخدمون تلك القنابل يوما ؟

ـ لا ادرى ولكننى لا اذكر ان ايا من السادة اجدادى قد توصل الى اختراع سلاح وأمسك عن استخدامه .

فيصوب المريخى الطيب الىّ نظرة طويلة يملؤها الاسى ، نفس الاسى الذى لابد يراه فى نظرتى ، معلنين معا ما يمكن أن نسميه بالاستسلام الفلسفى لقدر محتوم . ولكننى لا أبرح ان ابتسم له مهونا .

ـ لا داعى للتشاؤم الان على اى حال ، فربما حدثت لسبب او آخر طفرة بيولوجية تنقل السيطرة من الفص الخلفى البدائى للمخ ، الى الفص الامامى المودرن ، وعندئذ يسد السبيل على غريزة الموت ، ويتحول السفاحون والجهلاء الى طيبين وحكماء مثلى ومثلك .

ومن جيبى أخرج علبة السجائر التى امدها نحو ضيفى .

ـ سيجارة ؟

ـ متشكر ، لسه طافيها !

لماذا أيقظتنى القطة ؟

عواء منكر ترامى الى سمعى فى الظلام من وراء الباب المغلق ، ايقظنى من أحلى نومه فى عز الفجر . وفى تلك اللحظات الغائمة بين النوم واليقظة خيل الى ان أسدا أو نمرا قد هرب من الجنينة وحضر ليأكلنى ، بعد ان استدل بطريقة حيوانية خاصة على عنوانى . ومع العواء رزع فى الباب وهبد صرفا ذهنى عن الاسد والنمر الى خرتيت هائج مجنون يريد ان يحطم بابى ، دعك من احتمال ان يكون ذلك الخرتيت فيلا ضخما وبزلومة .

لكن هذه الخواطر الطفولية ما برحت بالطبع ان انقشعت باكتمال يقظتى ، وباكتشافى ان ذلك الصوت لايخرج عن كونه مواء قطتى وقد تحول لسبب ما الى ذلك العواء المنكر . فاذا أضفنا اليه ذلك النطح والدفع للباب فلايعود هناك شك فى انها تريد ان توقظنى ، فلماذا ؟ نعم قل لى ، لماذا تريد القطة ان توقظنى فى جوف الليل والناس نيام ؟

هناك احتمال بالطبع ـ قلت لنفسى ـ لأن يكون الشوق قد هفها

فجأة لمجالستي .. ذلك الشوق الذي اشتد واستبد حتى اعجزها عن ان تنتظر الى الصباح ، ولكنه احتمال ضعيف بعض الشيء بالرغم من توافر كافة العناصر التي تبرره . وهناك احتمال آخر لأن تكون جائعة تطلب الطعام ، ولكن هذا بدوره احتمال بعيد جدا . فلو ان تلك القطة كلما جاعت عمدت الى العواء ورزع الباب .. لكان على ان اختار بين أمرين : اما ان أسرحها ، واما أن أهجر البيت وأقيم في لوكاندة . فلايبقى اذن الا ان تكون قد شعرت بدخول لص الى البيت وقررت ان تشتغل كلبا ، ولكنه بدوره احتمال غير مقنع .

لست أدري ماذا يصنع الرجل العادي في مثل تلك الظروف ، وأغلب الظن انه يتناول فرده شبشبه وينهض لكى يسكت بها القطة العاوية ثم يعاود النوم ، ولكنك تعرف بالطبع انى لست رجلا عاديا ـ على الاقل فيما يتعلق بالقطط ـ انا في هذه الناحية ذو نزعة فرعونية متميزة ، وقد كان عند الفراعنة كما تعلم إلهة من القطط اسمها باستت ، وكانوا اذا ماتت لهم قطة حنطوها ودفنوها في مكان خاص وطلعوا عليها القرافة كل عيد . طبعا انا لا ابلغ في علاقتي بالجنس القططي هذه الدرجة من العباطة الفرعونية ، ولكنى اعتقد ان مثل هذا العواء الليلي أهم ـ وربما اقدس ـ من أن يسكته الرجل بفردة شبشب .

خلاصة القول انى نهضت (وهذه على فكرة قصة حقيقية وليست من وحي الخيال) وفتحت باب الحجرة متوقعا ان اراها تدخل مندفعة ـ ولكنها لم تفعل ، بل انها شبت على ساقيها ونونوت ، ثم بدأت تتحرك مبتعدة وهى تنظر الى داعية اياى ان أتبعها ، وكان

واضحا تمام الوضوح انها تريد ان تطلعني على شيء ما . فشعرت مدى لحظة بأنني أكون سخيفا لو تبعتها ، وهممت بأن أغلق الباب في وجهها وأعاود النوم ، ولكنك تعرف ذلك العرق الفرعوني . في صمت تبعتها الى كنبة في آخر الصالة ، متحاشيا ان اضيء النور كي لا اقلق النائمين ، مسترشدا بضوء الفجر الذي بدأ يتسرب من نافذة نسوا ان يغلقوها قبل ان يناموا . وعند الكنبة نظرت الى مرة اخرى ونونوت ، ثم زحفت على بطنها ودخلت تحت الكنبة . وانا بالطبع لايمكنني ان أدخل معها هناك ولكنني استطيع ان انظر ، فانحنيت ونظرت ولكنني لم أر في ذلك المكان المعتم شيئا . فمددت يدى متلمسا اياها فزامت ، الامر الذي اقنعني بضرورة أضاءة النور ، فمن يدريني أن ذلك الشيء الذي تحت الكنبة ليس ثعبانا خطيرا !

ولكنه لم يكن ثعبانا ، بل كان يمامة صغيرة سرعان ما ارتفع صوت بغيض لعظامها وهى تتحطم بين اسنان القطة المفترسة . فأسرعت بمغادرة مكان الجريمة وأطفأت النور ، وعلى كرسي قريب جلست لكى استعرض الحكاية في هدوء .

هذه القطة ـ كما هو واضح تماما ـ قد صادت يمامة من الحديقة ، ومن النافذة التي نسوها مفتوحة دخلت بالفريسة واخفتها تحت الكنبة ، فلماذا بحق الشيطان لم تأكلهافي صمت مثلما تفعل اى قطة صادت يمامة ؟ لماذ اقبلت تعوى وراء بابي وترزعه وتتعمد ايقاظي لكى انهض وأتفرج على المجزرة ؟ هل قال لها احد ـ بنت ستين كلب ـ انني رجل سادست يكره ان يفوته منظر قطة آثمة تلتهم يمامه بريئة ؟

لابد ان يكون للامر تفسير ، وباحثا عن ذلك التفسير اشعلت سيجارة وجلست افكر على ضوء الفجر وصوت قرقشة العظام . وكان اول تفسير وثب الى ذهنى انها ـ القطة وفى لحظة كرم لا قططى مفاجىء ـ كرهت ان تستأثر باليمامة ورأت ان تعزمنى عليها . ولكنه فرض سرعان ما استبعدته بسبب انه لايمكن ان يوجد فى ذهنها اية صورة سابقة لى وانا آكل يمامة صاحية . وبالنسبة للحمام ـ اذا كان قد التبس عليها الامر ـ هى تعلم جيدا اننى اشويه او احشوه قبل ان اكله ، وذلك بعد ان اكون قد ذبحته بالسكين وسميت عليه . وبصرف النظر عن كل ذلك ـ واذا كانت تريد ان تعزمنى ـ فلماذا زامت عندما مددت يدى نحوها ؟ فالأمر اذن يحتاج الى تفسير آخر ، ذلك التفسير الذى جلست ادخن وافكر فيه على صوت قرقشة العظام فى ضوء الفجر .

ممكن جدا ان تكون تلك القطة قد اصيبت بحالة النرجسية المفاجئة ، وبرغبة حادة ملحة ـ لاحظ اصرارها على ايقاظى ـ فى استعراض مهارتها وشطارتها فى صيد اليمام . فهى ـ وفقا لهذا التفسير ـ لاتريد ان تكتفى بما فى التهام اليمامة من متعة غذائية ، بل تصر على ان تكتمل لها المتعة الروحية بوجود شخص يتفرج عليها وهى تجنى ثمرة كدها ومهارتها . مثلها فى ذلك مثل مصارع الثيران الذى لا يمكن بالطبع ان تكتمل له متعة قتل الثور الا وسط جمهور كبير . انها وهى تلتهم اليمامة التعسة تقول لى :

ـ شايف القطط ؟ دا بوسى يابنى على سن ورمح !

تفسير لايخلو من الوجاهة وان لم يكن مقنعا تماما ، لاستبعادى ان

تكون تلك الانحرافات النفسية ـ الميول الاستعراضية هنا ـ من الاشياء التى تصيب جنسا عاقلا كالقطط . فيبدو اننى يجب ان ادخن سيجارة اخرى قبل ان اهتدى الى التفسير الصحيح ، على صوت قرقشة العظام فى ضوء الفجر .

هذه القطة تذكرت ـ فجأة ـ ان لها سوابق عديدة فى صيد اليمام والعصافير والفئران والسحالى وسائر مخلوقات الله ، ولطالما رآها الاولاد متلبسة بجرائمها فطاردوها وضربوها وحاولوا تخليص الفريسة من بين انيابها ، فهل يمكن ان يكون قد تربى لها ازاء هذه التجارب ما يمكن ان نسميه بالضمير ؟ حقا ان هذا يبدو متناقضا مع ماعمدت اليه من ايقاظى بدلا من ان ترتكب جريمتها فى الخفاء ، ولكنه قد يكون تناقضا ظاهريا . فالضمير كثيرا ما حمل صاحبه على ارتكاب اخطاء تفضحه امام الناس لكى ينال ما يشعر انه خليق به من العقاب . ولربما اشتد الضمير بهذه القطة التعسة حتى رأت ان تفضح نفسها قبل الاكل لا بعده . أوربما خالطت ـ ضميرها ـ نزعة مازوكية جعلتها لاتستطعم اكل الفريسة الا وهى تطارد من الناس وتضرب ، ولعلها طرقت باب الاولاد حتى يئست من ايقاظهم فأتت تطرق بابى على أمل ان أتولى انا عملية ضربها وهى تأكل .

وفاشلا فى ان احصل على الاقتناع الكامل من هذا التفسير بدأت العن أبا القطة فى سرى ، على صوت قرقشة العظام فى ضوء الفجر . وشيئا فشيئا اخذت كراهيتى لها تتزايد حتى امتدت يدى لاشعوريا الى فردة الشبشب ، وبحركة لا فرعونية بالمرة صوبت الاداة المذكورة فى شكل قذيفة شديدة الى ماتحت الكنبة . فخرجت

المجرمة تجرى وفى فمها ماتبقى من ضحيتها ، ثم قفزت من النافذة المفتوحة واختفت عن بصرى . فما هى الا لحظات حتى سمعت صوت قط آخر يعوى ، ثم صوت قطتى وهى ترد عليه بالشراسة المناسبة ، وعلمت ان معركة سوف تنشب فوق جثة اليمامة الميتة ، التى كانت منذ ساعة واقفة تغرد على هذا الغصن أو ذاك ، مسبحة ـ كما كانت تقول ستى ـ بذكر الله .

بحيرة البجع

ناظرا الى عينيها الخضراوين العميقتين ، احسست اننى ارى بحيرة البجع التى يخيل الى اننى اراها كلما استمعت الى موسيقى الباليه التى وضعها تشايكوفسكى بهذا العنوان .

قلت لها :

ـ عارفة لما بابص فى عينيكى بيتهيأ لى انى شايف ايه ؟

ـ ايه ـ سألتنى ـ فقلت :

ـ بيتهيأ لى انى شايف بحيرة البجع بتاعة تشايكوفسكى .

فتفكرت فى الأمر حينا ثم قالت :

ـ مرسى .

وكان بين يديها ابرتان من ابر التريكو تنسج بهما بلوفرا من خيوط الصوف الحمراء ، وكان شعرها الاصفر ـ وقد انحنت على الصوف ـ متهدلا على وجهها طويلا جميلا اصفر .

قلت لها :

- وعارفة شعرك بيفكرنى بايه ؟
بايه ـ سألتنى ـ فقلت :
- بيفكرنى بشعر البنت .

فهزت كتفها اليمنى فى استخفاف وقالت :
- ده شيء طبيعى لانى انا شخصيا بنت .
فقلت مستدركا :

- أنا موش قصدى شعر البنت يعنى شعر البنت ، لا .. أنا قصدى شجرة من أشجار شعر البنت .. والشجرة دى مزروعة على شط بحيرة البجع ، وأغصانها مدلدله تلعب فى المية .
فتفكرت فى الامر حينا ثم قالت :
- هى روسيا فيها أشجار شعر البنت ؟
قلت لها عاتبا :
- ليه السؤال ده ؟
فقالت مصرة :
- هى بحيرة البجع موش فى روسيا ؟
- لا
- ليه ؟ هو تشايكوفسكى موش روسى .. ؟
آه
- تبقى البحيرة بتاعته فى روسيا .
- البحيرة دى موش بتاعته بمعنى انه ورثها فى عزبة ابوه ، لا .. دى بحيرة خيالية .. وعلى شط البحيرات الخيالية ممكن تطلع أى

شجرة ، ان شاء الله تكون شجرة مكرونة .
فلم تجب ، ورفعت رأسها وهزته الى الوراء لكى ترد شعرها الى وضعه الطبيعى ، وكان لها عنق طويل جميل أبيض يثير فى الانسان رغبة فى ان يلمسه لو كان لمس الاعناق الطويلة الجميلة البيضاء من حقوق الانسان .
قلت لها :
- وعارفة رقبتك بتفكرنى بايه ؟
بايه ـ سألتنى ـ فقلت :
- برقبة بجعة من البجع العايم فى بحيرة البجع بتاعة تشايكوفسكى .. فأجابتنى لفورها قائلة :
- هاهاها .
ضحكة مقتضبة الا انها مطربة ، وذلك دون ان تنظر الى ، ناظرة الى يديها اللتين تمسكان الابرتين وتنسجان خيوط الصوف الحمراء
- وعارفة ايديكى يشبهوا ايه ؟
- ايه ؟
- يشبهوا حمامتين بيض صغيرتين ، والصوف الاحمر ده زى قش احمر بيبنوا بيه عشهم مابين اغصان شجرة شعر البنت المدلدلة على مية بحيرة البجع .
فتفكرت فى الامر حينا ثم قالت :
لكن القش طول عمره اصفر موش احمر .
- ده صحيح ، لكن انتى ماسكة صوف احمر ، وده اللى خلانى اقول كده ، فسكتت وسكت أنا ، وكنت جالسا ـ نسيت اقول لكم ـ على الارض أمامها حيث جلست على الكرسى ، فخيم على الحجرة

صمت صامت عميق ، الا من صوت اصطدام احدى الابرتين ، بالاخرى ، وحفيف الخيط الاحمر الطويل وهو يحتك برجل الكرسى الخشبية ، منسلا من كرة الصوف التى كادت تنتهى حيث استقرت على الارض بجانب قدم الفتاة .

قلت لها وقد خطر لى السؤال :

ـ بتشتغلى البلوفر الحلو ده لمين ؟

فأجابتنى لفورها :

ـ لمحمد امين يوسف عبد الرحيم بسيونى .

فتفكرت فى الامر حينا ثم قالت :

نفسى أقول حاجة .

ـ ايه ؟

ـ ولا بلاش .

ـ لاقول .

فقلت :

ـ موش تنتكرى ان بلوفر احمر زى ده يبقى شكله غريب شويه على واحد اسمه طويل بالشكل ده ؟

فتفكرت فى الأمر حينا ثم قالت ..

ـ لا ، موش ضرورى .

ـ خلاص (وافقتها) مادام شايفة ان موش ضرورى يبقى موش ضرورى .

وكان الخيط الاحمر قد انتهى كخيط احمر ، وبدأ حياته كقطعة من صدر أو ظهر بلوفر احمر ، فرأيتها تطويه على الابرتين وتنهض ، مبتعدة نحو الباب فى خطوات هادئة رشيقة ، كأنها بجعة كبيرة

لتلتفت نحوى فوق كتفها اليسرى قائلة :

ـ لكن اشمعنى ايديه بيفكروك بحمامتين بيض صغيرتين ؟

ـ موش عارف والنبى ياسوسو .. لو كنت عارف كنت قلت لك ، لكن موش عارف ، وغالبا يكون السبب فى انهم بيفكروك بحمامتين بيض صغيرتين ، انهم فعلا زى حمامتين بيض صغيرتين .

فتفكرت فى الامر حينا ثم قالت :

ـ طيب .

وهمت بالانصراف ولكننى اسرعت اقول :

ـ على كل حال احب انك تعرفى انى باكرهه كره العمى .

من هو ـ سألتنى ـ فقلت :

ـ محمد امين يوسف بسيونى عبد الرحيم

فنظرت الى فى كبرياء وقالت :

ـ من فضلك .. اسمه محمد أمين يوسف عبد الرحيم بسيونى

ولوت رأسها وسارت فى الدهليز الضيق الطويل الممتد أمام الباب ، حتى صارت نقطة صغيرة بعيدة واختفت .

ووحدى فى الحجرة الخالية الغارقة فى الصمت الصامت العميق ، احسست كأننى اغوص فى بحيرة البجع ، اغوص فى أعماق المياه الساكنة على صوت صفير فلوت خافت بعيد ، وفوق رأسى ـ قبل ان أغوص ـ منقار مائل على عنق طويل لبجعة بيضاء ، تنظر الى بعين سوداء براقة فى نوع من الاستغراب .

المانجة والطبقة الوسطى

لا أذكر على وجه التحقيق متى بدأت علاقتى بالمنجة ، ولكنها تمت ـ غالبا فى وقت ما منذ ثلاثين سنة ، بدليل اننى أذكر كيف رحت أقلب المنجاية التى قدموها لى بين يدى الصغيرتين قائلا لهم : وايه دى ؟ فقالوا مانجة . قلت مانجة ؟ قالوا أيوه منجة ، انت أطرش ؟ فرحت احاول حشر تلك الكلمة الجديدة بين معلوماتى اللغوية ، فى نفس الوقت الذى الهطها فيه بين اسنانى ، شاعرا بما يجب ان يشعر به أى انسان وهو يأكل أول منجاية فى حياته . يعنى باللذة الشديدة التى لم ينقص منها شعورى بالمضايقة بسبب الالياف الكثيرة التى انحشرت فى اسنانى الامر الذى يدلك على انها كانت منجاية من نوع حقير مع ان السوق مليئة بالاصناف الجيدة ، ومع ان الذين قدموا لى المنجاية المذكورة كانوا فى حالة مالية تسمح لهم بشراء تلك الاصناف ، وهذا معنى الاشارة فى عنوان هذا الكلام الى العلاقة بين ثمرة المنجة والطبقة الوسطى ، وهى علاقة ـ لوتدبرتها ـ معقدة

جدا ..

ان علاقة الطبقات العليا بالمنجة ذات طبيعة بسيطة وواضحة ، اذ يشتريها الرجل العالى بالسبت لا بالواحدة أو الدستة ، ويضعها فى الفريجيدير بين الديك الرومى وصحن الكافيار (اذا كان الكافيار يوضع فى صحن فربما كان يوضع فى الاكواب) ، وكلما شعر بأن ريقه ناشف صاح قائلا ياولد ! هات ست منجايات . ياولد ! هات سبع منجايات. وهكذا حتى يشبع هو والست والاولاد فيغسلوا ايديهم بنفس البساطة التى نغسل بها انا وانت ايدينا بعد أكل جوافاية أو تينة شوكية .

وكذلك الحال بالنسبة لطبيعة العلاقة بين المنجة والطبقات الفقيرة ، اذ يعلم الرجل الفقير بوضوح أن حياته لامكان فيها للمنجة وانه يجب الا يفكر فيها أو يشتهيها أو يحزن لغيابها ، تماما كموقفى انا من السيارة الرولز التى لا اركبها ، ومع ذلك لا اشعر بأى حزن لهذا الوضع ، لعلمى بأن الرولز ماركة لامكان لها فى حياتى وفقا لوضعى الطبقى .

انما يبدأ التعقيد فى علاقة الرجل بالمنجة اذا كان من الطبقة الوسط ، بسبب ان فى جيبه من الفلوس ما يمكنه من شراء المنجة ، حتى الهندى منها ، ولكنه فى الوقت نفسه يعرف ان فلوسه يدوبك على اد اللحم والخضار ، وان كل منجاية توضع امامه على المائدة سيقابلها نقص فى عدد قطع اللحم الموجودة على نفس المائدة . لذلك يشعر بتضارب عنيف فى عواطفه تجاه المنجة ، ويجد نفسه فى موقف اشبه بموقف الرجل التقى تجاه الغانية التى تغريه بنفسها ولكنه

لايريد ان يخسر دينه ، ولذلك لايلبث ان يغض البصر ويبتعد عنها وهو يستغفر ويحوقل ويبسمل ويستعيذ ، وتتقبض يداه على المسبحة التى فى جيبه .

هذا هو موقفى انا الاخر من المنجة ، فمن انا حتى اشذ عن ابناء طبقتى . اكون ماشيا فى الطريق وأراها فأشعر بخفقة سريعة فى قلبى ، تلك الخفقة التى لايمكن ان تحدث بالطبع اذا رأيت العنب أو التين أو حتى الخوخ ، بل انها تحدث احيانا قبل ان ارى المنجة ؟ اذ تكون رائحتها قد وصلت الى انفى من وراء المنعطف المقبل ، فيرسل مخى عن طريق اعصابى تلك الخفقة لينذرنى بأننى مقبل بعد لحظات على قفص من المنجة .

فاذا وقع بصرى عليها اسرعت بادارة جهى ، ومددت فى سيرى ، كأننى ذلك الرجل التقى وقد رأى عورة ، أو كأننى سكير قديم رأى زجاجة كورفوازييه بعد ان كان كبده قد وجعه فتاب عن الشراب . ولكننى لا استطيع دائما ان اتخلص منها بهذه السهولة ، ويحدث ذلك عندما اذهب الى الفكهانى لشراء كيلو عنب ، وبينما يزنه الرجل ويلفه اقف زائغ البصر بين اقفاص المنجة ، هذه بسنارة مكتوب عليها سبعة صاغ ، وهذه زبدية مكتوب عليها اثنا عشر ، دعك من المنجاية اياها التى تشبه البطيخة ومكتوب عليها عشرون .

دقائق عصبية اعيشها بين تلك الاصناف معانيا تلك المعركة النفسية التى تميز الطبقة المتوسطة ، بسبب انه معى من النقود ما يمكننى من شراء المنجة ، ولكننى اقول طب واللحمة ؟ طب والخضار ؟ طب والسجاير ؟ طب والبنزين ؟ طب وكذا وكذا من

الاشياء التى تعرفها اذا كنت من الطبقة المتوسطة ؟ ؟

ويزداد الموقف حرجا اذا تصادف ان كان معى اولادى ، اذ يقول لى الواد منهم :

ـ دى المنجة طلعت يابابا !

فأقول له اننى اعرف انها طلعت ، وانه يعرف اننى اعرف انها طلعت ، ولكننى لن اشتريها لانها لم ترخص بعد . فاذا كان اليوم التالى سألنى بقوله :

ـ المنجة لسه مارخصتش ؟

ـ لسه .

وهكذا كل يوم حتى يزهق الولد ويقول لى :

ـ انت مستنى لما تبقى بكام .. بنكله الواحدة ! !

فازغر له زغره مناسبة لطفل قليل الادب من الطبقة الوسطى ، ولا يمنعنى من ضربه إلا تقديرى لسنه التى تحول دون ادراكه لحقيقة وضعه الطبقى ، والتى توهمه ـ شأن كل الاطفال ـ ان اباه على كل شيء قدير ، حتى على المنجة .

وهكذا تمر الاسابيع حتى تصيبنى نوبة من تلك النوبات الثورية التى تصيب الرجل حتى اذا كان من الطبقة المتوسطة ، واقرر ان اشترى المنجة ، وملعون ابو اللحم والخضار والبنزين نفسه ! الى الفكهانى اتقدم مرفوع الرأس منفوش الصدر واقول له :

ـ إدينى منجة !

واشعر فى صوتى بتهدج لامناسبة له ، ذلك التهدج الذى يتضاعف عندما يسألنى كم واحدة أريد ، فأقول له وانا استجمع كل

ما املك من قدرة على الاستهتار :

ـ دستة ! ولا خليهم دستتين .. آه !

فيجذب الرجل كيسا ويهم بتحويل المنجة لولا اننى أوقفه قائلا له :

ـ طول بالك ! انت ح تديها لى بكام ؟

ـ الواحدة بشلن عشان خاطرك .

شلن ؟ هه ! آل شلن آل .. انت فاكرنى ماباشتريش منجة ؟

ـ العفو يابيه .. هو انا ماعنديش نظر ؟

ـ يعنى انه ظاهر من منظرى انى ولدت وفى فمى منجاية هندى ، وهذا كلام لايخيل على بالطبع ، ولذلك اقول له :

ـ الواحدة بخمسة تعريفة .

ـ ما يخلصش .

ـ طب بتلاتة ساغ ..

ـ يعنى اخسر فيها ؟

ـ بلاش ..

وأمشى فينادينى قائلا ان عوضه على الله ، ويعبىء الدستتين فى كيس احمله تحت ابطى وانصرف به مسرعا ، كأننى اخشى ان يغير رأيه ويرجع فى البيعة . خفقان فى قلبى لابد انك تتصوره اذا قارنته بالخفقان الذى يثيره منظر المنجة المجرد ، مع رعدة خفيفة فى الركبتين ، وتلفتات الى الناس حولى لاتخلو من شعور بإثم ، كأننى لم اشتر تلك المنجة وانما سرقتها ، أو كان الكيس الذى احمله لايحوى دستتين من المنجة وانما طربتين من الحشيش !

ويمكنك ان تتخيل المظاهرة الضخمة التى تشب فى المنزل فى ذلك اليوم ، اذ يرانى الواد من النافذة فأسمعه يصرخ بأعلى صوته قائلا :

ـ ماما . . بابا جاب منجة !

هل شم رائحتها من هذا الارتفاع الكبير ، أو هل هى الحاسة السادسة ، لا أدرى ، ولكننى ادرى انه ـ الواد المفجوع ـ سيخطف الكيس منى بمجرد دخولى ، ولذلك أتيت عليه بقوة ، ولا اسمح لأحد ان يمس محتوياته الا بعد تقسيمها بالعدل والقسطاس . وبينما اقوم بتلك العملية تنهال على سمعى من افراد الاسرة عشرات الأسئلة الهستيرية والتعليقات السكيزونزينية مثل :

ـ ياحلاوة ياولاد ! المنجة رخصت ! اشتريتها بكام ! لا دى صغيرة ! نايبه اكبر من نايبى ! انا عاوز الخضرة ! الصفرة احسن ياعبيط ! دى ناشفة ! دى طرية ! ياحلاوة ح ناكل منجة ! بتقول اشتريتها بكام ؟ .

ويبدأ البحث عن السكاكين ، توطئة للنحت والنهش واللهط ، كل عيل من العيال قد انتحى بنصيبه ركنا بعيدا أمينا ، وأحدهم قد تحصن فوق صحارة عالية زيادة فى الاحتياط . وكل ذلك قبل الاجراءات التى لامفر منها مثل ضرب الواد الذى يريد ان يأكل نصيبه كله مرة واحدة ، ورفص الآخر الذى يرمى البذرة على الارض ، ولطش الثالث الذى يأكل القشر ، وصفع الرابع ـ اذا وجد ـ الذى يصر على كسر البذرة بيد الهون لكى يرى ماذا فى داخلها .

طبيعى ان مثل هذه المظاهرة لايمكن ان تحدث فى غير بيوت

الطبقة المتوسطة بسبب ماسلف شرحه من تعقيد العلاقة السيكولوجية بينها وبين ثمرة المنجة . ويزداد الامر تعقيدا بالنسبة لى انا شخصيا ، اذ ان عقلى الباطن يمنعنى من الاستمتاع بالمنجة حتى فى ذلك اليوم الخيالى ، اذ ماتكاد المنجاية تستقر فى بطنى حتى تبدأ معدتى فى الكركبة ، ومصارينى فى الزغورة . وهى ـ بغير شك ـ حالة من الاحتجاج النفسى العام على اكلى للمنجة ، وانا رجل من الطبقة المتوسطة ، مقرونة بشعور بالذنب كالذى لابد ساورأبانا ادم بعد ان أكل الثمرة المحرمة ، بالرغم من انها كانت تفاحة لامنجاية .

نعم ، لاشك انها مسألة معقدة ، مسألة العلاقة بين ثمرة المنجة والطبقة المتوسطة ، ولكنى واثق من حلول يوم تنحل فيه هذه العقدة ، عندما تتغير نفسيه الطبقة المتوسطة ، أو يتغير سعر المنجة ، أو الاثنان معا . وفى ذلك اليوم لن يضطر الرجل الى ان ينظر الى المنجة نظرة القديس الى المرأة الخاطئة ، وهذا اذا كان سيوجد فى ذلك اليوم قديسون أو خطاة .

رسالة الى ولدى

ولدى العزيز : استهل كلامى بالترحيب بك على ظهر كوكبنا الجميل المسمى بالكرة الأرضية ، وبتهنئتك على ما أسبغته العناية الالهية عليك من نعمة الوجود ، متمنيا لك حياة سعيدة مديدة ، ومنتهزا هذه الفرصة لكى الفت نظرك الى بعض المتاعب التى ستعرض فى حياتك وتعكر صفوك بين الحين والحين ، وذلك لكى تأخذ لها أهبتها ولا تفاجأ بها مثلما فوجئت أنا ، ولنبدأ بالمتاعب الجسمية .

بعد ستة أشهر لاغير ستفاجأ ـ ياولدى ـ بأول أوجاعك الجسمية المحتومة وهو مانسميه بالتسنين ، فلا تخف ولا تهتم بالمرة ، بل أبشر ، فهذا الوجع هو البشير بظهور أسنانك الصغيرة الجميلة التى تمضغ بها أطايب الشوكولاتة والبونبون ـ اذا ترك لك أخوتك شيئا منها . حقا انك ستفاجأ بعد سنوات بأن تلك الأسنان الجميلة قد بدأت تتساقط مثل أوراق الخريف ، وستعجب من الحكمة فى

ظهورها مادامت مخلوقة للسقوط ، ولكن برضه ماتتخضش . . فسقوط هذه الأسنان بشير آخر بظهور طقم أسنانك الجديد الذى يعيش معك مدى الحياة (إن لم تفضل استبداله بطقم صناعى لكى تشفى من الروماتزم) والذى به تستمتع بمضغ مأكولات الكبار مثل اللحم الضانى أو البتلو أو الكندوز - أو الجملى - وفقا لحالاتنا الاقتصادية . حقا - من جديد - انك قد تفاجأ بتساقط هذا الطقم بعد سن الثمانين ، ولكن موش تحمد ربنا على كونك عشت ثمانين عاما

ثمة وجع آخر ينتظرك حتما ياولدى ، فى شكل سخونة تعتريك وتستدعى حبسك فى الفراش لا تأكل الا الزبادى ، يومين أو ثلاثة قبل أن تنتشر على جسمك تلك النقط الحمراء الصغيرة التى نسميها بالحصبة ، وهى مرض خفيف لاعيب فيه الا ماقد يؤدى اليه من الالتهاب الرئوى ، وهذا بدوره مرض أصبح لا يعتد به بعد ظهور ذلك الشراب الأحمر الجميل المسمى بالترامايسين ، فلا تحمل لأى من المرضين هما .

وفى ذات ليلة لايمكن تحديدها - ياولدى - ستصحو على وجع مفاجىء فى جنبك الأيمن فتفزع وتظنه أمرا خطيرا ، ولكن أبدا . . انه ليس الا المصران الأعور ، تلك الزائدة الصغيرة المتخلفة فى جوفك من أيام أجدادك الذين كانوا يأكلون الأعشاب ، وهى تستأصل بسهولة بعد اجراء بسيط لايتعدى فتح بطنك ، ولايتكلف اكثر من الجنيهات الثلاثين التى تكون قد ادخرتها لتركيب طقم أسنانك .

تلك هى الأوجاع التى أستطيع ان أضمنها لك ، وهذا لا ينفى وجود أوجاع أخرى ذات صفة احتمالية ، ولذلك نتركها لظروفها عندما تكبر .

الجانب التربوى

دعك من أوجاع الجسم وتعال معى الى بعض الكلمات التى ستسمعها من اليوم الذى تتعلم فيه الكلام ، والتى ربما ضايقتك نوعا فى أول الأمر ، وعلى رأسها كلمة صغيرة من حرفين اسمها كخ . انها كلمة صغيرة ولكنها ربما سببت لك بعض الازعاج بسبب أنها لا تقال لك الا عندما تريد ان تقوم بعمل لذيذ كأكل البونبونة العاشرة أو شد ذنب القط ، أو كبش حفنة من تراب الحديقة ووضعها - بيدك - فى قفاك ، أو ادخال أصبعك فى بريزة الكهرباء ، أو مغادرة المنزل عن طريق نافذة الطابق الثانى ، أو رى الزهور المرسومة على كنبة الصالون بكوب ماء ، أو امساك الكوب نفسه والقائه على الأرض للتلذذ من منظر تحوله الى كومة من الزجاج ، ومالى ذلك من الأعمال الممتعة .

فى مقابل هذه الكلمة المزعجة ستسمع كلمة اخرى لطيفة وهى كلمة دح ، تلك الكلمة التى سنقولها لك كلما أديت عملا طيبا نافعا ، مثل شربك لكوب اللبن عن آخره - بالوش ، أو صعودك الى سريرك الصغير الجميل بعد الغروب مباشرة ، أو جلوسك ست ساعات كاملة بدون أى حركة أو صوت أو كلام .

والجانب الثقافى

ومن الأشياء التى ستصادفك وتبدو لك فى شكل متاعب ـ لأنك مازلت صغيرا ـ حكاية انك فى الوقت الذى تريد فيه ان تلعب ، سنريد نحن ان تتعلم وتتثقف ، وذلك بأن تذهب الى المدرسة ، وفى المدرسة ستتعلم أشياء قد تبدو لك تافهة ولكنها فى الحقيقة هامة وحيوية بالنسبة للرجل العصرى ، مثل اليوم الذى ولد فيه بطليموس الثانى ، والمكان الذى تستمر الأمطار فيه طوال العام ، وطريقة اشعال مصباح كيروسين والمبلغ الذى كسبه رجل من بيع فدانين بسعر الفدان ٥٩٤ جنيها ، تلك المعلومات المفيدة التى لا تبرح تتطور معك كلما كبرت حتى يأتى عليك يوم تدخل فيه قسم الفلسفة بكلية الآداب لتعرف لماذا فشلت كافة محاولات الفلاسفة فى تحقيق غاية الفلسفة ، أو تدخل كلية الطب لتعرف لماذا لايزال الزكام مستعصيا على العلاج حتى الآن .

والجانب الاخلاقى

وشىء آخر ـ ياولدى ـ ربما عكر صفو حياتك السعيدة بعض الشىء ، وهو ذلك الشعور الغريب الذى سيدهمك فى سن الخامسة عشرة بأن بنت الجيران حلوة قوى ، ويغريك بأن تترك دروسك وتقف فى الشباك لتعاكسها ، فاذا بصفعة تنزل على قفاك من يدى وأنا أقول لك :

ـــ عيب يا ولد !

فتختبىء فى حجرتك ، وتكتب لها رسالة غرامية مطولة ، تلك

الرسالة التى تقع فى يدى فأمزقها وأقول لك بعد أن أصفعك على قفاك ثانيا :

ـــ عيب يا ولد !

فتقول لى وقد أغرورقت عيناك بالدموع

ـــ لكن يابا أنا بحبها . انت رجل مثقف ومنطقى ، تقدر تقول لى ليه ماأحبهاش ؟

فأتفكر فى الأمر حينا توطئة لأن أجيبك هذا الجواب البليغ :

ـــ كده .

ـــ كده ليه ؟

ـــ كده يعنى كده .

ـــ لكن هى بتحبنى كمان .

يا بن الايه (أقول لنفسى) اتاريها رفعت الشباك فى وشى من يومين وأنا بضحك لها !

ثم انثنى نحوك قائلا وقد وضعت على كتفك يد الحكمة الأبوية :

ـــ شوف يابنى . . الواحد لما يحب بنت لازم يتجوزها . . وانت يابنى . . .

ـــ ليه (تقاطعنى) يابا ؟

ـــ ايه اللى ليه ؟

ـــ ليه الواحد لما يحب بنت لازم يتجوزها ؟

ـــ لأن أبويا قال لى كده . . وأبو أبويا قال لأبويا كده ، وابو أبو أبويا قال له كده . . انت عاوز تغير نظام الحياة البشرية ؟

ـــ لأ . بس عاوز أحبها .

— اذا حبيتها من غير جواز أبوها ح يزعل .. واذا زعل بيضربك . واذا ضربك حتشتكى لى . واذا اشتكيت لى ح اتخانق معاه . واذا اتخانقت معاه اما أضربه وأروح القسم ، واما أنه يضربنى وأروح المستشفى وأظن ده مايخلصكش ..

وكل هذا المنطق لا يقنعك اذ تقول لى :

— لكن يابابا ....

فأقاطعك بالكلمة التى تقنع كافة الأولاد فى كافة الأزمان :

— اخرس يا ولد !

فتخرس .

والبقـــاء لله

ثم انك يا ولدى ستأخذ الشهادة وتتوظف ، وبذلك ينتهى دورى فى تعكير صفو حياتك وينتقل هذا الدور الى رئيسك فى العمل ، تقاسمه فيه زوجتك اذا تزوجت . ولكننى أؤكد لك انك مهما صادفت من حياتك العملية والزوجية ، فإن تلك المتاعب لن تصل أبدا ـ مع شاب تلقى مثلك هذه التربية العالية ـ الى درجة خطيرة ، بدليل اننى أنا وقد صادفت من تلك المتاعب اكثر من كل ماسوف تصادف أنت ، مازلت قادرا على أن أحمل القلم (٢٠ جراما) وأكتب لك هذه السطور .

شىء واحد ربما ذرفت له الدموع بنسبة اكبر من المعتاد فى الأيام العادية ، وهو ذلك التليفون الذى سيرن عندك حتما فى ذات يوم حاملا صوت أمك يقول لك ان أباك (ان شالله العدو يارب) قد مات ، وهذا بالطبع اذا كانت هى لم تمت بعد ، واذا لم تكن الحرب

الذرية قد نشبت وافنت البشر جميعا ، الأمر الذى يجعل هذه السطور غير ذات معنى .

فاذا تلقيت تلك المكالمة التليفونية فلا مانع من أن تبكى على ، بشرط ألا تسرف فى الحزن والبكاء الى الدرجة التى تتسبب فى افساد الترتيبات المناسبة لوقار جنازتى . واذا أحسست بعد عودتك من المدفن بشىء من تأنيب الضمير ، فهذا ليس غريبا بعد كل المتاعب التى سببتها لى فى حياتك ، ولكن لاتدع تلك المشاعر تستبد بك هى الأخرى الى الدرجة التى تصيبك بالشلل فى ذراعك أو ساقك كما سمعت انه يحدث لبعض الأبناء عندما يموت أباؤهم . وكذلك لا تحقد على لأننى لم أترك لك شيئا يذكر ، هو يعنى أبويا كان ساب لى حاجة ؟

هذه ياولدى عينة من المتاعب التى ستصادفك فى حياتك ، وهى كما ترى أهون بكثير من أن تستحق القلق أو التشاؤم ، فسوف تنتصر عليها كما انتصرت أنا ، جانيا سعادتك من خلالها كما يجنى العسل من خلية النحل ، حتى يحين أجلك المحتوم وتلحق بى فى مدفننا بالبساتين . فاذا حان هذا اليوم ـ بعد عمر مديد إن شاء الله ـ ووجدت نفسك داخلا على فحاول أن تتذكر كراهيتى الشديدة للتيارات الهوائية ، وماتنساش ـ ياولدى ـ تقفل الباب كويس وراك !

لماذا تصافحنى ؟

لست أدرى من كان أول رجل صافح الآخر فى التاريخ ، هل كان فرعونيا أو آشوريا أو صينيا أو هنديا أو ماذا ، ومهما كان من أمر فأنا أعتقد انه قد أدخل الى المجتمع البشرى عادة مزعجة جدا . . فلماذا يجب على اذا ماقابلت الرجل ان أمد له يدى ويمد لى يده توطئة لالتقاء اليدين فى ضغطة يفترض فيها بالعافية كده ـ أنها ترمز الى الصداقة والمحبة ؟ أليس ممكنا ان أحب الرجل دون أن أمسك يده ؟ واذا كانت ملامسة الرجل للآخر تزيد من تأكيد المحبة ، فلماذا تختص اليد البشرية بالذات بهذه الوظيفة ؟ لماذا ـ مثلا ـ لايتقابل الرجلان فيمد كل منهما يده الى أذن الآخر ليشدهاشدة صغيرة وهو يبتسم له ، وتتأكد الصداقة بينهما بالتلامس الذى وقع بين الأيدى والأذان ؟ .

ربما كانت المصافحة مفيدة أيام زمان عندما كانت الدنيا تمشى بالعافية ، اذ يلتقى الرجلان فيمسك كل منهما بيد الآخر ويضغط

عليها لكى يمتحن قوته ، اذا وجده قويا صادقه ، واذا وجده ضعيفا خاصمه ! وربما كانت المصافحة فى تلك العهود مفيدة من ناحية أخرى ، لما تكلفه من وقوف الرجلين المتصافحين وبينهما مسافة معقولة تضمن لكل منهما الا يقوم الأخر بحركة عدائية مفاجئة ، خصوصا أننى حين أقبض على يد الرجل اليمنى أعرف اننى بذلك قد عطلتها عن العمل ووقيت نفسى شرها . كل هذا جائز أيام زمان ، فأى فائدة لبقاء المصافحة حتى الآن بعد استتباب الأمن وانتشار الشرطة فى الطريق واختراع بوليس النجدة ؟

فلو ان كل الناس يعرفون أصول المصافحة لهان الأمر ، لكن الواقع غير هذا . لابد انك التقيت بذلك الرجل الذى ماتكاد تعطيه يدك حتى يبدأ فى الضغط عليها بكل قوته كأنها جوزة يريد ان يحطمها وهو يبتسم فى وجهك بقسوة ويجز على أسنانه . فلما تنتهى المصافحة تجد أصابعك قد اتصق بعضها بالبعض ، وبيدك الأخرى تبدأ فى فصلها أصبعا عن أصبع . . ولابد انك التقيت بالرجل الأخر الذى لايقنع بالمصافحة الا اذا شملت الذراع كلها ، اذ يرفع يدك الى أعلى ثم يخفضها بقوة يكاد يخلع ذراعك من كتفك ، ثم يرفعها ويخفضها ، عدة مرات متعاقبة كأنه يشغل ذراع طرمبة .

ومن الناس صنف اعطيه يدى فيأخذها ولايريد أن يردها . فى الطريق وقد التقينا مصادفة أصافحه ، اسأله عن صحته ويسألنى عن صحتى وهو قابض على يدى ، وعن سير الأمور فى المصلحة التى يعمل بها والمؤسسة التى أعمل بها وهو قابض على يدى . وعن عشرات الموضوعات التى تطرأ وهو قابض على يدى ، كأنه قد

اشتراها منى أو كأنه يعتقد انه مايكاد يتركها حتى أتركه أنا وأجرى . وأخيرا عندما يستنفد الحديث اغراضه يتركها وقد سخنت وتصببت عرقا ، يلفحها الهواء البارد فتكاد تصاب بالروماتزم .

ومن الناس من تتناول يده فتجدها رخوة لزجة فيخيل اليك انك أمسكت ضفدعة ، ومنهم من تمسك يده فتشعر انك أمسكت كومة من سلك تنظيف الباركيه . فاذا تصادف ان كان الذى تصافحه رجلافقيرا ومنافقا . . فربما انحنى على يدك لكى يقبلها وأنت تجذبها منه قائلا استغفر الله ، الا اذا سبقت القبلة الجذبة فسترجع يدك وهى مبلولة ورائحتها طعمية .

وهناك بالطبع تلك السيدة المتدينة التى تمد يدك اليها فتسارع بتغطية يدها قبل أن تعطيها لك ـ بطرف طرحتها مخافة ان تنقض وضوءها . فتصافحها وانت تعانى من شعور اليم بالذنب ، اذ تسببت لها فى تلك التقلصات النفسية التى تتعارض مع نزوعها الظاهر الى الكمال الدينى . أضف الى ذلك شعورك بالغيظ من تلك السيدة التى تريد ان توهمك بأنك ذئب تظهر انك تصافحها وفى نفسك أغراض أخرى ، علماً بأنك لابد ان تكون ذئبا ردىء الذوق جدا حتى تساورك هذه الأغراض الأخرى بالنسبة لسيدة ذات طرحة سوداء .

والضيف الذى يقف قائلا استأذن ويمد يده ليصافحنى ، فأصافحه وأسير معه الى باب الحجرة حيث يقول خلينا نشوفك ويمد يده ليصافحنى ثانيا . وفى طريقنا من باب الحجرة الى باب البيت تعن لنا أحاديث جديدة نكملها عند الباب المذكور ، وبانتهائها يمد

يده ويصافحنى للمرة الثالثة .

فى ذات مرة عددت مع أحد الضيوف قبل أن يخرج من البيت تسع مصافحات .

ومرة وأنا سائر فى الطريق رأيت صديقا يناديني من نافذة الأوتوبيس الواقف فى الاشارة فذهبت لمصافحته . وكان من النوع الذى يحب احتجاز اليد التى يصافحها ، فظل محتجزا يدى وهو يدردش حتى بعد أن تحرك الأوتوبيس ، جريت معه نحوا من نصف محطة .

وكثيرا ماالتقى برجلين فتواجهنى تلك المشكلة الصعبة ، أيهما الذى أبدأ بمصافحته؟ اذا بدأت بمصافحة هذا . . ظن ذاك انى أحبه أقل ، والعكس اذا بدأت بمصافحة ذاك ، فاذا انحلت هذه المشكلة فهناك مشكلة أخرى ، مشكلة التزامى بأن تكون مدة مصافحتى للثانى مساوية تماما لمدة مصافحتى للأول ، لكيلا يظن انى أحب هذا الأول أكثر منه . وأحيانا تقع التباسات أشد تعقيدا ، اذ يمد احدهما يده الى نفس اللحظة التى أكون قد مددت يدى فيها الى الآخر ، فيهم بارجاعها خالية خائبة ، ولكيلا اتسبب له فى تلك الخيبة أحاول ان آخذ يده قبل أن ترجع ، وذلك فى نفس اللحظة التى يكون الأول قد مد يده ليلتقط يدى ، فترتد يده هو خالية خائبة . ولكيلا أتسبب له هو الآخر فى تلك الخيبة أحول يدى ناحيته بعد أن يكون الأول قد مد يده ، وهكذا . فى ذات يوم قضيت ربع ساعة قبل ان أنجح فى اصطياد يد واحد من الصديقين .

ولمصافحة السيدات متاعبها الخاصة ، لأن السيدة اما أن تكون

جميلة واما غير جميلة . اذا كانت غير جميلة فأنا مكلف ـ كجنتلمان ـ بأن أضغط على يدها ضغطة حارة توحى اليها بأننى أراها جميلة وبذلك أرفع من روحها المعنوية ، مع الوقوف عند درجة معينة من الحرارة حتى لاتتوهم اننى أغازلها وتطلبنى بالتليفون . اما اذا كانت جميلة فالمسألة أعقد ، اذ ما أكاد آخذ يدها حتى تمتلىء نفسى حسرة بسبب شعورى بأن هذه اليد هى كل مالى فيها . عينة صغيرة منها فى يدى ، قصقوصة من قماش لا أملكه ولاحق لى فى أن ألمسه أو أشتريه ولابالفلوس . وبعد انتهاء المصافحة ارفع يدى الى أنفى لكى أشم عطرا ذكيا ، فتزداد حسرتى بسبب ان يدى وحدها هى التى نالت هذا العطر . فاذا ما ضغطت على يدها بحرارة أظهر بها تأثرى ، فهناك أحد احتمالين : ان تبادلنى ضغطتى الحارة فتمتلىء نفسى بأحلام أعرف انها لن تتحقق ، أو تسحب يدها باحتجاج فأشعر بأننى وحش ودمى ثقيل وأصاب بعقدة النقص .

فمصافحة النساء كما ترى ليست أحسن من مصافحة الرجال عادة . جازى الله الرجل الذى ابتدعها ، فرعونيا كان أو بابليا أو هنديا أو أى شىء .

زواج الفلاسفة

من السخف طبعا أن أنوه بالقيمة الفلسفية لكل من بول سارتر وسيمون دى بوفوار ، لكننى اعتقد أنهما كفيلسوفين يمتازان عن سائر الفلاسفة بشىء هام جدا ، وذلك انهما يملكان من الشجاعة مايمكنهما من أن يعيشا فى مستوى فلسفتهما ـ أو بمعنى آخر ان يعيشا فلسفتهما . فاذا كانت الفلسفة بالنسبة لمعظم الفلاسفة مجرد آراء تنشر وتباع للناس فهى بالنسبة لهذين الفيلسوفين مبادىء يلتزمان بها فى ممارستهما للحياة ، وبذلك تحولا من مجرد فيلسوفين الى قيمة فلسفية حية متحركة .

أنا طبعا لا أحيط بكل التفصيلات عن اسلوبهما فى الحياة ، ولكن حسبى منهما ما أعرفه من أنهما ـ فى تطبيقهما لفلسفة خاصة ـ رفضا فكرة الزواج التقليدية وعاشا صديقين اكثر من أربعين عاما . أى انهما مارسا الزواج فى صورته التى يؤمنان بها وفقا لفلسفتهما ،

بشجاعة وصراحة أمام كل الموافقين والمنكرين ، فى النور بلا كذب ولا نفاق ولا تسلل من الأبواب الخلفية فى الشوارع المظلمة .

وليس ذلك لأنهما فيلسوفان وجوديان وانما لأنهما فيلسوفان . فمن قبلهما خاض نفس التجربة فيلسوف آخر هو هافيلوك اليس ، اذ رفض هو وزوجته فكرة قفص الزوجية ـ معذرة أعنى عش الزوجية ـ وقررا ان يعيش كل منهما فى بيت خاص يمارس فيه حياته الخاصة ، يتقابلوا كده كل مايستوحشوا لبعض . واذا كانت الذاكرة لم تخن ، فاعتقد ان الفيلسوف برتراند راسل قد خاض نفس التجربة ، فى ذلك الشوق الفلسفى نحو ارساء الزواج على أسس جديدة ثقافية ، تنزيها لكل من الرجل والمرأة عن أن يكون زواجهما بمثابة النهاية لحريتهما الشخصية . ولابد أن فلاسفة آخرين قد نهجوا هنا وهناك نفس السبيل ، فياليت أحد محترفى قراءة السير يتفضل ويرسل لنا قائمة بهم .

ففى ذات لحظة شوق الى تلك الحرية الشخصية فى ظل ذلك الزواج الثقافى قلت لزوجتى اننى أريد ان أقيم فى بيت لوحدى ، فشهقت بالطبع وقالت ياندامتى ! شرحت لها ان هذا ليس هجرا وانما ثقافة ، فقالت يادهوق ! أكدت لها اننى سأمر عليهم كل يوم والتانى ، فقالت يامصيبتى ! اقسمت لها اننى لن أبخل عليهم بأى قرش يريدونه فقالت ياخرابى !

انما انا أقول ذلك ـ هكذا شرحت هى لى ـ لأننى اكرهها واكره أولادى ، ولأننى رجل دون ليس له أمان ، أخذ زهرة شبابها والآن يريد ان ينبذها نبذ النواة مع تشريد أولادها ، وهى فى النهاية حيلة مكشوفة منى اتذرع بها لكى اتزوج عليها أو على الاقل أدور على حل

شعرى اذا افترضنا اننى لست دايرا من الاصل !

فقلت لها طيب طيب ، طيب خلاص ! وانسحبت الى حجرة مكتبى ذليلا مقهورا ، مكتفيا من الفلسفة بقراءتها فى الكتب ، حتى فوجئت ذات يوم باختفاء كافة مؤلفات سارتر وبوفوار واليس وراسل من مكتبتى . . تلك الكتب المسمومة التى رأت زوجتى انها تهدد حياتها ، والتى يجب ان يجبر مؤلفوها بأمر الحكومة على تجرع السم مثل سقراط ، وذلك بتهمة الافساد لشباب أثينا وهؤلاء بتهمة الافساد لكهول القاهرة .

وكعادتى عندما اصطدم بالواقع احب ان أجنح الى الخيال ، ووحدى فى مكتبى سرحت فى القيمة الشاعرية لتلك الكلمة السحرية ـ وحدى ! وحدى فى البيت وللبيت حديقة ـ وحدى ! وحدى اصحو فى الصباح لاننى صحوت لا لأن العيال صحونى ! فى سكون مقدس اشرب قهوتى غير مهدد بقذيفة مفاجئة تقلب الكنكة على الترابيزة ، أو يد طائشة تقلب الفنجان على حجرى ! وبينما أشرب القهوة وأقرأ جريدة الصباح على غير صوت صراخ الولد الذى صفعته أمه لأنه يصر على وضع اللبن فى السكر بدلا من السكر فى اللبن .

ثم افتح الثلاجة مطمئنا الى ما سوف أجده فيها ، بيضة واحدة موجودة خير من عشر كانت هناك ، والخبز فى هذا الصندوق حيث تركته بالامس ، رغيف واحد ولكنه ليس ذلك الرغيف الناشف المقلحف الذى تركته ايدى الغزاة ! والملاحة هنا فى ذلك الدرج حيث وضعتها ، لن أبحث اليوم عنها تحت السرير ولا فوق الدولاب .

فاذا قمت لارتداء ثياب الخروج فلماذا أقفل الباب ؟ وفى طريقى الى الباب أصفر لحنا دون ان أسمع تنويعا عليه من مصفر غيرى . لا أحد يسألنى أين ذهبت أو متى أعود ـ هو انا نفسى عارف ؟ ولا هات معاك زبادى للفتة ولا فوت ع الترزى شوف بدل العيال ، ولا اقطع لنا تذاكر سينما ولا احجز لنا فى البالون .

صحيح اننى لا احب الغداء فى الخارج ولكننى لا احبه فى الداخل أيضا . حاسب تدلق الشوربة . طلع كمك من الملوخية . كل زى الناس . وانت على مهلك شوية . نزل القطة دى من على الترابيزة . ماما سكتى علاء . بس ياولد ، انا عملت حاجة ؟ فين الملاحة ؟ ناولنى لقمة . أحمد ، أحمد فين المية يا ابن الكلب .

وبعد الغداء « لحظة للزغطة » لا اعرف اذا كنت سأعود الى البيت لأنام أو أدخل سينما من تلاته لستة . أو أسير فى الطرقات كالعبيط ، أو حتى أجلس فى حديقة الأزبكية . لا أحد ينتظر وصولى بالزبادى من أجل الفتة ولا أحد يلعننى فى سره ، متخيلا اياى فى أوضاع شاذة .

وحدى ! وحدى ! سمكة فى الماء وطائر فى الهواء ، وحدى ! فإذا سئمت الوحدة ، فاننى اطلب زوجتى فى التليفون ، كلمة آلو اقولها بشوق وحنان ، على عكس تلك الالو التقليدية الجوفاء التى تعرفها كل امرأة متزوجة . ورنة الوهها الخاصة تطربنى ، كما لاشك ان الوهى قد أطربتها ، صوت الصديق الذى افتقد الصديق منذ أيام . معى تذكرتا سينما ، نتقابل عند الناصية ؟ نتقابل كعاشقين عند الناصية وفى العيون بريق وفى القلب خفقان حيث نجلس متلاصقين فى السينما ، عمرك شفت واحد قاعد فى السينما وماسك ايد مراته ؟

صحيح ان الفيلم سخيف وقد قص نصفه فى الرقابة ، ولكن هل سمعت بعاشق يتفرج على الفيلم ؟

وبعد السينما عشاء خفيف وزجاجة بيرة ، وخلال ذلك همس لطيف بين رأسين متقاربين فى شوق . لن تحتاج زوجتى الى ان تشدنى من الكرافتة خمس دقائق كاملة قبل ان أنتبه مبحلقا الى المائدة المجاورة ـ الى انها قد سألتنى سؤالا . وبالفورد النشوى أتهادى الى باب بيتى الذى هو بيتى أنا . لا أسمع وأنا أدير المفتاح فى الباب تلك الرقصة التقليدية لباب حجرة العيال الذين يريدون ان يدعوا انهم قد ناموا من الساعة ثمانية .

وللعيال فى ذلك الزواج الثقافى نصيب طبعا ، مادام جم ، أمرنا لله ! اعتقد ان يوم الجمعة مناسب جدا لفسحة فى حديقة الحيوانات لكى نطمئن على الدبة والفيل . فاذا كان الجو باردا أو مطيرا فهى سينما من عشرة لواحدة حيث اتسلى بقرقشة البطاطس الشبس مع العيال . وحشتكو ياولاد ؟ قوى يابابا ؟ وانتو كمان ياولاد الايه . حتى ضجتهم وحشتنى ولذلك نتغدى كلنا معا معنا ، لايهمنى بالمرة ان أحدا منهم ينسف الطعام ولايمضغ ، ولا ان الاخر يحول الملوخية الى جوف كمه من صحنى الخاص .

وكنت أحب ان أطيل فى وصف ذلك الزواج الفلسفى لولا ان الوقت قد حان لكى أنزل الى العمل .

ـ ايه ؟ بتقولى ايه ؟ موش سامع ؟

ـ باقول هات لنا معاك زبادى للفتة !

نعم ان الامر يحتاج الى شجاعة ، تلك الشجاعة التى عجز عن تحقيقها فرويد نفسه بعد كل المرمطة التى الحقها بالعواطف

التقليدية . كانت من ناحيته - كما هى من ناحيتى - مجرد مرمطة على الورق ، وفى احد الكتب عندى رأيت صورته جالسا كالعبيط مع زوجته وابنته فى بيت واحد !

سلطان الزمان

أنا ملك الملوك ! أنا سلطان زمانى ! أنا كوكو !

هكذا يقول المذكور - كوكو - بغير ان يتكلم ، يقولها بعرفه الكبير الاحمر الذى يتلاعب فوق رأسه كالعلم ، وبالريش الاخضر والازرق الذى يتلألأ فى جناحه الاسود ، وبساقه الطويلة المتينة التى ينقلها على الارض فى تؤدة وثبات ، متلفتا حوله فى كبرياء وخيلاء من يعرف انه ملك الملوك وسلطان الزمان . . صاحب الجلالة كوكو !

وليس من شك فى انه كائن جميل ، ديكى كوكو ، من حقه ان يقع فريسة لكل ذلك الغرور ، خصوصا وان معه - فى نفس العشه - دجاجة ذهبية اللون تبدى له من الاعجاب ما كان طبيعيا ان يغذى فيه هذا الغرور . أمامها يقف كالعملاق الجميل ، يفرد جناحيه ليضرب بهما الهواء ، ويمد عنقه الى أعلى مايستطيع ملعلعا بالأذان ، يؤكد للدنيا من جديد انه ملك الملوك وسلطان الزمان ، صاحب الجلالة كوكو .

غير انى انظر إليه فلا أملك سوى ان أتصعب فى رثاء ، لذلك الكائن التعس بالرغم من فخامته ، الذى ليس عنده أيه فكرة عن الغاية من وجوده حقا . حقا انى انا الاخر لا استطيع ان أحزم بأننى أعرف الغاية من وجودى ، لكن يكفينى انى أحاول التعرف على تلك الغاية أو اننى أعرف الغاية من وجودى أما هذا الديك فهو لايفكر فى الامر بتاتا ، بل انه فى أغلب الظن يحتضن فكرة خاطئة كل الخطأ عن الغاية من وجوده . بكل هذا الغرور يعتقد فيما يبدو ان الغاية من وجوده هى ان يأكل كثيرا ويشرب كثيرا ، وأن يمرح وسط حريمه لكى ينجب المزيد من الكائنات المغرورة مثله ، التى تخلد ذكره فى الدنيا بصفته ملك الملوك وسلطان الزمان .

وعلى العكس منه زوجته الذهبية الوديعة ، التى اما هى تنقى الارض فى تواضع وهدوء ، وإما راقدة على البيض فى صبر طيب . فاذا ما وضعت أمامها صحن الطعام فهى تمد منقارها اليه فى تردد وحياء ، بعكس ذلك الوغد الذى يصر على ان يقتحم الصحن اقتحاما يلقى بجماع نفسه فيه كأنه رجل يأخذ غطسا فى حمام سباحة .

يأكل ثم يشرب ثم يؤذن وهو يضرب الهواء بجناحيه ، فى حين تأكل الدجاجة الذهبية ثم تعاود رقادها الهادىء على البيض فى ركن العشة . وفى عينيها حيث ترقد نظرة مفكرة ، تنظر الى ثم تنظر الى زوجها فى تساؤل ، أكاد أسمعها تقول له :

- ياترى الراجل ده بيوكلنا ليه ؟

فينظر نحوها فى دهشة ، ثم ينظر نحوى فى ازدراء اكاد اسمعه هو

الاخر يقول :

- دهه ؟

- آه ، ليه بيجيب لنا أكل كتير كده ؟

فلا يجيبها من فوره ، بل يحرقها بنظراته نحوا من دقيقة قبل ان يقول :

- ح يكون ليه ياست هانم ؟ عشان ما انقروش ! عشان انا كوكو ! ملك الملوك وسلطان الزمان ح يقعد من غير أكل يامغفلة !

عقابا لها على هذه الغفلة ينقرها فى ظهرها فتجفل وتقفز بعيدا عن البيض ، متسببه بهذه الحركة فى انكسار بيضة ، تلك البيضة التى يسرع اليها كوكو ليأكلها غير عالم - أو عالما ولايهتم - انه يأكل احد أولاده .

لم يخطر بباله مرة واحدة انى اطعمه واسمنه لكى اكله . بعد كل هذه الالاف من السنين التى تذبح فيها الديوك بيد الانسان ، اليس غريبا ان ديكا واحدا لم يكتشف بعد ان الغاية من وجوده هى الذبح ؟

اذا فتح له باب العشة فيخرج فى نفس الزهو والخيلاء ، متوهما انى ما فتحتها له الا خوفا من بطشه ، أو لاننى أريد ان أتيح له جولة تفتيشية يتفقد بها أحوال الرعية والبلاد ! يرى القطة النائمة فى الشمس فيهجم عليها ويفزعها ، تنطلق راكضة وهى تنفخ . والكلب نفسه يكتفى بأن يبادله نظرات الحقد دون ان يجرؤ على الاقتراب منه . والاطفال الذين يحبون معاكسة كل الكائنات يعرفون ان هذا كائن لاتجوز معاكسته ، مرة جرى وراء واحد منهم نحوا من

عشرين مترا وهو ينقره فى مؤخرته .

بل انى انا شخصيا اعامله بقدر اكبر من اللازم من الاحترام ، تحاشيا لمنقاره من ناحية ، وكراهية منى لان اتسبب ـ اذا ما التحمنا فى معركة جدية ـ فى تحطيم كل هذه الكبرياء برفصة ، حتى ولو كانت كبرياء كاذبة ولامبرر لها . اذا كان يجد لذته فى الشعور بأنه ملك وسلطان ، فلماذا افسد عليه هذا الوهم مادام لايضرنى فى شىء ؟

بل انى اعتقد انه بالنسبة للديوك بالذات جدير بى ان أساعدها على تنمية ذلك الغرور ، اليست ستستقر فى النهاية فى بطنى ؟ وما دام فى نيتى ان آكل هذا الديك فلماذا لا أسمح له بعام من الغرور والسلطنة ؟

اذ اننى ذات يوم ـ والوقت آخر الشهر ـ رأيت ان أوفر ثمن كيلو اللحم ، وقلت لهم أريد ان آكل كوكو . الدجاجتان تبيضان وخسارة ذبحهما ، ولكن ما الذى يصنعه كوكو ويعجز عن صنعه أى ديك آخر ؟ فحملوه من الجناحين وهو يصرخ ويتلوى ، غير مصدق ان شيئا كهذا يمكن ان يحدث لكوكو . الى لحظة وضع السكين على عنقه لم يصدق ، ولم يبد عليه الخوف بل الغيظ الشديد من هذه المعاملة المزرية لملك الملوك وسلطان الزمان .

وعلى المائدة استقر مكتف الساقين ، الساقين اللتين نقلهما على الارض فى تؤدة وخيلاء . وبخار شهى تصاعد منه وربة البيت تفسخه نصفين ، مسائلة اياى ان كنت أريد من الصدر أو من الفخذ .

ـ حته من هنا وحته من هنا ، أجبتها بما عرف منى من القناعة .

وكان صدره لذيذا حقا ، لا عجب انه من خلاياه طلعت تلك الريشات الخضراء والزرقاء التى تتلألأ على جسمه الأسود . لكن الفخذ كانت ناشفة نوعا ، تقاوم الأسنان وترفض ان تمضغ .

يظهر دى الرجل اللى كان بيمشى عليها بتؤدة ، قلت لربه البيت اديني التانية اللى كان بيمشى عليها فى خيلاء .

وكانت الاخرى أطرى نوعا ، وفى صحن الدمعة لمحت رأس كوكو بدون منقار طبعا ، فتناولته وفتحته لكى آخذ فكرة عن مخه ، وجدته بالحجم الذى يتناسب مع كل ذلك الزهو والخيلاء .

كيف تشترى خروف العيد ؟

كانت فكرتى عن الطريقة التى اشترى بها خروف العيد هى ان انتظر حتى أرى رجلا سارحا بعدد من الخرفان فأقول له ياتباع الخرفان ، أوزن لى الخروف اللى هناك ده لو سمحت .

ولكنه لم يكن متاحا لى أن الجأ الى هذه الطريقة ، من ناحية لأن الحى الذى أسكن فيه لايسرح فيه الرجال بالخرفان ، ومن ناحية اخرى لما حدثنى به اهل العلم من ان الرجل العاقل لايشترى خروفه بهذه الطريقة ، لأن الخرفان التى يسرح بها الرجال خرفان رديئة فى أغلب الاحيان ، والا فلماذا سرحوا بها أصلا ؟

منطق معقول طبعا ، ولذلك صدقته وقلت لهم :

ـ أمال الراجل العاقل ، يا أهل العلم ، يشترى خروفه ازاى ؟

فقالوا لى انه يذهب الى المذبح برفقه واحد منهم ، حيث ينتقى بمساعدته خروفا مناسبا فيدفع ثمنه ويذبحه ويسلخه ويوضبه ويعود به الى المنزل فرحا مرحا فخورا .

- على خيرة الله ، يا للا بينا . .

هكذا قلت لهم ، وسحبت ـ أقصد سحبني ـ واحد منهم الى المذبح حيث اجلسني فى قهوة بلدى مع تاجر خرفان ملطخ الجلباب بدماء بضاعته ، وأحضروا لنا ثلاثة خرفان لنتخير منها ضحيتنا ، أحدها بنى اللون كبير القرنين ، والثانى رمادى اللون متوسط القرنين ، والثالث غير ذى قرنين أصلا ، بل غير ذى لون أيضا ويبدو أن شخصا ما قد حلق له شعره بسبب أو آخر نمرة زيرو

قلت لهم :

- يظهر ان الخروف ده معجب بيول برينر ، هاها

ولكن احدا لم يضحك ، الأمر الذى فهمت منه ان سمعة المستر برينر لم تصل بعد الى المذبح ، وهذا غير مهم ، المهم اننى كنت فى صف الخروف الرمادى ، لابسبب لونه الشاذ فحسب ، وانما بسبب ماميزته اذنى فى مأمأته من نغمة سيكا خفيفة ، ولكن زميلى ـ مندوب اهل العلم بشئون الخرفان ـ قال لى ان هذا الخروف هو أسوا الخرفان الثلاثة ، والرجل العاقل لا يجوز له ان يتخير خروفه على أساس من الاعتبارات الموسيقية . اذ ان الصوت لا أهمية له فى الدلالة على جودة اللحم ، بدليل انه اشترى مرة خروفا يسجل بصوت تينور لطيف « أوكتافا » كاملا ومع ذلك كان لحمه زى الزفت

- يظهر ـ قال تاجر الخرفان ـ ان البيه غاوى طرب ، هع هع

ومع همهمته هعهع سائر الموجودين بالقهوة لسبب لا أدريه ، فانكمشت فى بذلتى وقررت الا اكشف لهؤلاء القوم عما لا يبدو انه فى امكانهم ان يتذوقوه من خواطرى .

وانتهى زميلى من فرز الخرفان الثلاثة حتى وقع اختياره ـ صدق أو لاتصدق ـ على الخروف الاقرع قائلا :

- الفروة موش مهمة ، لانك طبعا ح تأكلوه من جوه .

فهززت كتفى فى استخفاف قائلا :

- انت أدرى ، ولو ان صوته عادى خالص .

واخذوا الخروف فوزنوه وحاسبونى عليه ، ودفعت للتاجر مبلغا من المال أوجعنى الى درجة اننى قلت يارب ان حكمتك أجل من ان أدركها ، ومع ذلك ألم يكن أرحم بنا لو انك أنزلت على سيدنا ابراهيم بدلا من الخروف زوجا من الارانب ؟ ومع ذلك فرب قضاء أخف من قضاء ، والحمد لله على انه لم ينزل بدل الخروف جاموسة أوجملا ، والا كان فى ذلك خراب بيتى .

وبانتهاء عملية الشراء احضروا لنا جزارا يتصبب بدل العرق دماء وأوصوه بأن ياخذ باله من البيه ويدبح له الخروف كويس . وكان من رأيى أن يذبحه حيث جلسنا ، ولكن الجزار لسبب لا أعرفه صمم على أن يذبحه فى منزله .

- هو البيت (سألته) بعيد ؟

- لا ، ده خطوتين .

فنهضنا وبدأنا رحلتنا ، الجزار ومندوب أهل العلم وانا ، والخروف بيننا يقدم رجلا ويؤخر الأخرى ، توطئة لان يثبت فى مكانه

ويرفض السير رفضا باتا . فلو كانت له قرون لجذبناه منها ، ولو كانت له فروة لجذبناه منها ، ولكن ماذا تصنع بخروف عديم الفروة والقرون ؟ لذلك أخذ الجزار يدفعه من مؤخرته قائلا لى فى سآمة :

ـ قول له ور يابيه .

ـ ور ؟

ـ أيوه ور . .

ـ للخروف ؟

أيوه عشان يمشى . .

وكان فى لهجته من نفاد الصبر مايدل على ضيقة الشديد بهذا البك الذى لم يسمع حتى هذه اللحظة ان الخرفان تسير عندما يقول لها الرجل ور . حقا انه كان يجب ان يدرك انه غير لائق بذلك البك ـ حتى فى حالة علمه بتلك الحقيقة ـ ان يسير فى الطريق العام قائلا ور ، خصوصا اذا كان الخروف الذى يوجه اليه الكلمة خروفا اقرع ، ولكنه ـ الجزار ـ كان يريد ان يوصل الخروف الى المنزل بأية طريقة .

فلما كنت انا الاخر مشتركا معه فى تلك الرغبة ، فقد بسطت ذراعى فى استسلام وقلت للخروف :

ـ ور ياسيدى . . ورر . . وررر

ففهم اللعين الكلمة وسار ، نحوا من عشر خطوات قبل ان يتوقف من جديد ، كأنه يريد ان يفهمنى ان الحكاية موش فوضى ، وانه ليس من الخرفان التافهة التى تسير أكثر من خمسة امتار بـ « ور » واحدة .

فخضعت للأمر الواقع ورحت أقولها وأعيدها أنا ومندوب أهل العلم ، فى حين يتولى الجزار عملية الدفع من الخلف ، ذلك المنظر الذى اعجب نصف دسته من الصبية فانضموا الينا ، وكلما توقف

الخروف يقولون ور ، وكلما سار يصفقون ويقولون هيه !

واستمرت تلك المظاهرة الى بيت الجزار الذى اتضح انه على بعد نحو من كيلومتر ، الامر الذى يدلك على النسبية التامة فى مسألة تحديد المسافات ، وكيف ان مايبدو لك ـ انت الرجل العادى ـ كيلومترا ، لايبدو الا خطوتين اثنتين بالنسبة للرجل الجزار .

وفى منزل الجزار رفضت ان اشهد عملية الذبح وفوضت أمر المراقبة لزميلى مندوب اهل العلم . اذ اننى وان لم اكن ضد اكل الخرفان فإننى ـ قطعا ـ ضد ذبحها . وفى اعتقادى ان خبراء المراسم الدينية لو نظروا الى الأمر من الناحية المنطقية ، واضعين فى ذهنهم انه عندما وضعت تلك المراسم لم يكن فى متناول يد الانسان من الاسلحة سوى القواطع كالسكاكين والسيوف ، لانتهوا الى ان المسلم الحديث فى عصر الذرة يمكنه ان يستخدم المسدس فى تضحيته بالخروف ومع ذلك يذهب الى الجنة .

حقا ان استخدام الرصاص فى قتل الخرفان سوف يحدث يوم العيد من الضجيج مايخيل اليك ان فى البلد معركة حربية ، ولكننى اعتقد انك توافقنى على ان القتل بالرصاص اقرب الى الرحمة بالخروف . وهناك طرق اخرى اكثر اتفاقا مع روح العصر كاستخدام الكهرباء فى صعق الخروف ، أو استخدام العقاقير الحديثة التى يمكن ان تحقنه بها فى الوريد فيموت ميته هادئة لطيفة .

نعم اننى ـ فى حدود علمى بهذه المسائل ـ لا أرى اى مناسبة لافتراض اننى لن ادخل الجنة الا اذا عذبت خروفى ، دعك من بطتى ودجاجتى وديكى الرومى وسائر طيورى . . ولذلك اكون شاكرا

لو تفضل احد الفقهاء بافتائى فى هذا الرأى واطلاعى على مدى نصيبه من الصحة .

الى هنا أرجو ان تأذن لى بالتوقف عن الكتابة ، اذ أن ثمة رائحة شواء ذكية تصل الى انفى من حجرة المائدة ، واعتقد انك توافقنى على انه اذا كان الكلام عن الخرفان محببا الى النفس ، فإن اكلها ـ بالنسبة للرجل العاقل على الاقل ـ احب من ذلك بكثير .

عندما قتلت أبى !

فى ذات يوم سحيق ولدت فى كهف مظلم بسفح الجبل ، هو على ظلامه خير من الخلاء المحاصر بجليد ساقع لم ينحسر عن الارض بعد . فى هذا الكهف عشت ومت ووجدتنى انت بعد الاف السنين فأسميتنى مرة انسان النياندر ومرة انسان بلتدون ومرة انسان جاوة ، الى اخر كل الاسماء التى تحب ان تطلقها على الاشياء .

لكننى لم اعرف الاسماء ، ولست اذكر ان احدا نادانى بأى اسم . انا هو انا ، أثبت وجودى بالحركة وبالفعل ، لم أتوصل بعد الى تزيين صوتى بالمقاطع والكلمات . انى ازوم اذا تضايقت ، وازمجر اذا غضبت ، وأموء اذا رضيت ، وأضحك اذا سررت ، وحسبى هذا من فنون التعبير عن النفس . لكن حذار ان تستهين بى ، فعندى رمح نحته من الصخر وزودته بسن من العظم استطيع به ان افتح فى أى لحظة يختارها كرشك ! نعم استطيع ان أفعل ذلك بسهولة ، لايغرك اننى اقصر منك قامة ، واننى أسير منحنيا الى الامام نوعا .

فى هذا الكهف المظلم ولدت وكبرت ، ومنه خرجت كل يوم برمحى المسنون لكى أمارس وظيفتى الطبيعية وهى الصيد .. الغزال اصيده والثور الوحشى والدب والخنزير البرى ، بالقوة والشجاعة اصيدها وبالحيلة ايضا . رسمت على جدران كهفى صورة الغزال فسحرته وجعلته يسعى الى ، ولبست جلد الدب ورقصت به فخدعت المذكور وجعلته يقترب منى لاقتله وآكله .

وفى آخر النهار أعود من رحلة الصيد متعبا . استرشد فى سيرى بتلك النار البعيدة الموقدة ، اذ نسيت ان أخبرك انى قد نجحت منذ زمن فى اكتشاف النار . وبجانب النار تجلس امرأة احبها ، تهوى عليها لكى لاتنطفىء ، ولكى تشوى عليها الغزال اللذيذ الذى تعرف انى سوف أعود به ، انى أعرفها من زمان تلك المرأة العزيزة ، واذكر ساعات طويلة سعيدة قضيتها أتقلب على حجرها ، تحبنى واحبها وهى مثلى لاتحمل اسما .

تحبنى وللاسف الشديد تحب رجلا آخر ، وهذا الرجل ـ ياحسرتاه ـ اقوى منى . هو أسد وانا شبل ، وهو كلب وانا جرو ، لكنه يعرف مثلما أعرف ان الشبل سوف يصبح أسدا ، واننى انا الجرو سوف أصبح ذات يوم كلبا . ولذلك أحبها ـ تلك المرأة التى لا أسم لها ـ من بعيد ، نصيبى منها ضئيل مثل نصيبى من الطعام بالقياس الى نصيب الكلب الكبير . تعلمت الا أطمع فى أكثر من النصيب الذى يحدده لى ، فطالما أوقفنى عند حدى بنظرة نيندرية حادة وزمجرة بلندونية مفزعة . هل تصدق انه فى ذات ليلة تعشى بربع غزال كامل ، وتركنى انا لكى أتعشى بفار مشوى صغير

وخنفستين !

فلعلنى لذلك اكثر من الرسم على جدران الكهف ، صور الحيوانات ـ كما اخبرتك ـ تسحرها وتجذبها الى ، والرسم من ذاته يسرى عنى ويعطينى فرصة افش بها غلى . ويشاركنى فى الرسم شاب اخر عرفته دائما فى الكهف ، عرفته دون ان أعرف له هو الاخر اسما . فهو فى ذلك مثل سائر الشبان الذين يقاسموننى كهفى ، ومثل سائر الاناث التى احبهن من بعيد ، وأحيانا أختلس حبهن اختلاسا ، اذ كن بدورهن من نصيب الكلب الكبير .

لكن الجراء والاشبال ـ كما أسلفنا ـ تكبر ، وفى الوقت نفسه لايبرح الهرم والضعف يدبان فى كبار الاسود والكلاب . وهكذا وقع المحتوم فى ذات ليلة عاصفة من ليالى شتائنا الدائم . صدى زمجرة الرياح فى الخارج يتلاعب بشعلة النار داخل الكهف ، يلقى على الجدران خيالات وأشباحا رهيبة . فنظرت الى صاحبى ونظر صاحبى الى ثم اتجهت عيوننا الى الاسد الرابض هناك ، ملء البطن بفخذ خنزير مشوى ، يغالب النوم وهو يوجه نحونا نظرات فيها ريبة وفيها خوف دفين ، كأنه قرأ شيئا مما يدور فى أذهاننا .

لم نتكلم ـ صاحبى وانا ـ لانه لم تكن عندنا كما أخبرتك لغة منطوقة . لم نتكلم بالصوت ولكننا تكلمنا بالعيون ، تخاطبنا بالنظرات على ضوء الشعلة الراقصة . قلت له بنظرة موحية :

ـ تيجى ياواد !

فأجابنى بنظرة مماثلة :

ـ يالله !

فشجعتني موافقته وقلت له :

- قوم بينا !

وانتظرت ان يقوم ، ولكن شيئا من التردد ظهر فى عينه التى تقول :

- ولو انه صعبان على .

- صعبان ! ده يصعب على حد !

ولكننى كنت فى داخلى اشعر بنفس الشفقة على الكلب الكبير ، ولذلك كان لازما ان نستعيد شيئا من ذكرياتنا الاليمة لكى تطاوعنا نفسنا على تنفيذ مايراودنا . فرحنا بتذاكر اخطاء الرجل فى حقنا ، وجباتنا من الفيران والخنافس والاعشاب الجافة ، والعلقة الحامية التى اخذناها منه يوما بعد يوم ، وتكويشه الجشع على إناث الكهف ، الى متى نصبر على هذا الذئب ، الى متى ، والى متى ،

كان هذا كافيا لكى يثيرنا ، فنهضنا ، وعندما نهضنا نهض الرجل وامتدت يده الى هراوة غليظة من الخشب . لكنها كانت معركة محتومة النتيجة ، هراوة السلطة ترتفع فى كهفنا للمرة الاخيرة .

انا الشبل قد صرت اسدا ، وصاحبى الجرو قد صار كلبا ، والكلب الكبير هرم وضعف ووهن العظم منه . ثوان محمومة سريعة وخيالات دامية تصارعت على ضوء الشعلة الراقصة ، ثم صرخة مكتومة رددتها جنبات الكهف ، ثم سكون شامل لايقطعه الا صوت زفيرنا وشهيقنا ونحن نلهث من الجهد والانفعال .

نظرت الى صاحبى ونظر صاحبى الىّ ، ثم نظرنا معا الى الجثة الهامدة عند اقدامنا . ثم سمعنا بالقرب منا حفيفا ودبيبا ، ونظرنا الى

سائر أقراننا من سكان الكهف وقد اتوا يزحفون نحونا ، جذبتهم رائحة الدم ووقفوا ينظرون بعيون فزعة جاحظة .

لم اكن اعرف اللغة ولكننى زمجرت بما معناه .

- أيوه قتلناه ! عاجبكم ولا لأ ! !

فتراجعوا فى خوف ، الأمر الذى شجعنى على ان اصيح .

- امشوا اطلعوا برة !

فازدادوا خوفا وهو ماجعلنى التفت الى صاحبى وشريكى فى الجريمة صارخا :

- وانت معاهم !

فقد حان الوقت لكى يعرفوا من الزعيم الجديد ، مات الملك وعاش الملك !

لايام معدودة عشت ملكا ، تعشيت بالغزلان وحليت بالاناث ولكننى كنت طوال الوقت أشعر بأن التاج واسع على رأسى نوعا ، واننى لست أقوى رجال الكهف . هناك كثيرون غيرى ، خافوا يومين ثم بدأ خوفهم يزول . جراء كثيرة قد صارت كلابا ، واشبال كثيرة صارت أسودا ، وكان لابد للمعركة ان تنشب . دماء غزيرة سالت على أرض الكهف ، وطرطشت على الجدران فأتلفت صور الحيوانات . وهأنذا أرقد ذات مساء متخم الجوف بخنزير مشوى ، ومن خلال جفونى المتعبة المح عبر شعلة النار المتراقصة شبحين لشابين جلسا بالقرب منى يتناجيان . . ماتعرفش وحياة والدك بيقولوا ايه ! !

صورة سيدة نظيفة

كرجل عادى اعترف بأننى احب منظر الانثى وهى تمارس اوجه نشاطها ، حتى ولو كان ذلك النشاط مجرد انحنائها لكى تلتقط شيئا ساقطا على الارض . لكن هناك منظرا خاصا يستهوينى بشدة ولسبب لا أفهمه ، وذلك منظر الانثى وهى تنشر الغسيل هناك فى بلكونتها .

ربما كان ذلك بسبب مايثيره المنظر فى نفسى من احساس عام بالنظافة ، مضافا الى شعورى بقداسة العمل اليدوى الذى تقوم به تلك الانثى ، هى بدلا من ان تضيع الوقت فى الرغى التليفونى الفارغ دخلت الى الحمام لرغى الصابون ، بيديها الرقيقتين دعكت الغسيل ومرطته وأضافت اليه الزهرة ثم شطفته وعصرته وخرجت به الى البلكونة ـ بورك فى يديها ـ لتنشره امامى . وقد كان فى امكانها ان تكل هذه المهم الى خادمة ولكنها لم تفعل ، اى انها ليست نظيفة فحسب ، وانما تكره استغلال الآخرين ايضا .

ولعله مما يجيب الى منظر الانثى ناشرة الغسيل . . ان شعرها يكون فى معظم الاحيان منكوشا متهدلا ، وانت تعرف ضعفى نحو ذلك الشعر المنكوش . وفى بعض الاحيان يكون ملفوفا بايشارب ، وانا أحب الشعر الملفوف فى الايشارب . فى كافة الحالات أحب شعر الانثى ماعدا حالة واحدة ربما تستغربها ، تلك الحالة الصناعية المزعجة لحظة خروجها من محل الكوافير .

هى تنحنى فى بلكونتها على صنية أو قروانة الغسيل وقد تهدل شعرها ، تلتقط قطعة منه ثم تعتدل لتضرب بها الهواء قبل ان تنشرها على الحبل . نحو الحبل تمد ذراعين عاريتين ناعمتين تثبت قطعة الغسيل عليه ، اذ ان معظم الاناث يفضلن ـ لسبب لا افهمه ـ نشر الغسيل وهن فى قميص نوم بمبة وذى حمالات . يخيل الى وهى تثبت القطعة على الحبل انها تعزف على البيانو لا تنشر الغسيل ، بورك من جديد فى يديها العاملتين . وحمالة القميص تنزلق عن كتفيها وتتدلى على ذراعها ، تعجز بالطبع عن اصلاحها بسبب انشغال اليدين جميعا فى ذلك العمل المقدس ، وبسبب علمها انها قد تمسك قطعة الغسيل بيد واحدة لكى تعدل الحمالة فتغامر بسقوط تلك القطعة الى الشارع معرضة اياها للبهدلة أو للضياع . كتف عارية لمدة دقيقة لن تضر احدا ، وها هى ذى تنتهى من تثبيت المشبك فى الحبل فسرعان ماترفع يدا رقيقة ترد الحمالة الى وضعها الاصلى .

ومرة اخرى تنحنى وتختفى وراء الملاءة التى نشرتها ، ثم تظهر بقطعة جديدة من الغسيل وقد قبضت بين اسنانها على مشبك من الخشب أو من البلاستيك ، ذلك المنظر الذى لا أدرى كيف تستقبله

انت والذى بالاختصار يفتنى انا ، وبصعوبة بالغة امنع نفسى من ان اقفز وأصفق واقول ياسلام سلم .

عشرات من المرات تنحنى وتبرز بعشرات من قطع الغسيل ذات المائة لون ، مفتونا أرقبها كأننى ولد صغير فى يوم المولد ، وكأن ذلك الغسيل تلك الاعلام العجيبة التى يسحبها الحاوى من فمه مشبوكة فى ذلك الخيط الطويل .

انا لا ارى الا نصفها العلوى لكننى اتخيل رقصة العضلات المتوترة فى ساقيها وهى تشب على أطراف أصابعها لكى تصل بتلك الفانلة الى الحبل البعيد . وبالنسبة لقدميها فاعتقد انها اما حافية واما تلبس شبشبا خاصا بالحمام الذى سوف تهرع اليه عقب انتهائها من نشر الغسيل ، تلك الفكرة التى تضاعف فى نفسى ذلك الاحساس المنعش بالنظافة العامة .

وبامتلاء كافة الحبال بالغسيل تقف الانثى لتلقى عليه نظرة استعراض اخيرة ، وفى تلك النظرة لمسة زهو مبررة لما ادت من عمل يدوى مقدس ، ذلك الزهو الذى لاتنتبه فى غمرته الى ان حمالة القميص متدلية منذ دقيقتين .

ثم ذلك الاحساس المرير بأن الحفل قد انتهى ، عندما تنحنى الانثى لتلتقط الصينيه أو القروانة وتخرج بها من البلكونة ، وفى أغلب الاحيان ـ وا أسفاه ـ تغلق الشيش ، ستار الختام الذى كان مقدرا له ان يهبط على تلك المسرحية القصيرة الممتعة . وعالما انه لامفر لها ـ كسيدة نظيفة ـ من ان تذهب الى الحمام لتأخذ دشا ، أرهف سمعى لكى اسمع صوت الماء المنسكب ، ولكننى لا انجح

طبعا . فأكتفى بالخيال مدى لحظة أحافظ فيها على ذلك الاحساس المنعش بالنظافة العامة ، توطئة لأن اتنهد فى استسلام فلسفى صامت وانا أردد فى نفسى قول الفرنسيين فى مثل تلك الأحوال : سى لافى !

بالع الزلط !

لو ان علماء التطور شاهدوا ولدى الصغير ـ ٤ سنوات ـ لغروا فكرهم من ان الانسان اصله قرد الى ان اصله نعامة ، باعتبار ان النعامة هى الحيوان الوحيد الذى يبلع الزلط .

هو كالنعامة والعن ، لايرى اى شىء فى الدنيا حتى يتناوله ويبلعه . القروش يبتلعها والشلنات ، محولا بطنه من بطن الى حصالة ، فاذا اكل المشمش فلابد له ان يبتلع بذرة أو اثنتين ، وكذلك الحال مع البرقوق والبلح والزيتون الاسود . فلعل هذا هو سبب كراهيته للموز انه ليس له بذر يبلعه .

ومرة قال لى هات لى بلى يابابا ، ونسيت عادته واشتريت له عشر بليات ، كنت احسبه يريد ان يلعب ولم يخطر لى انه جوعان . بلع خمس بليات ولحقناه قبل ان يحلى بالنيكل .

ومرة رأيته يجلس منتفخ الشدقين بشكل غير طبيعى حتى بالنسبة له ، ففتحت فمه واخرجت كرة بنج بونج . وقبل ان اقفله فحصته

جيدا ولكننى لم اجد المضرب .

ومنذ يومين لاغير أقبلت امه مخضوضة تقول انه قد بلع زلطة

ـ واحدة ؟

ـ آه .

ـ تبقى بسيطة .

ـ بسيطة ازاى ! قوم استفهم منه كويس .

فرحت استفهم منه .

ـ انت ياولد بلعت زلطة !

ـ آه .

ـ وليه تبلعها ؟

ـ عشان كانت فى بقى !

وروى لى أخوه الاكبر انها كانت زلطة سمينة الى درجة انه اضطر الى بلعها بلقمة وجرعة ماء .

ـ على كل حال بسيطة ، قلت للأم المخضوضة ، هى دى أول زلطة بلعها ؟ ده تلاقى فى بطنه محجر !

ـ ده وقت هزار !

ـ هوه فيه حاجة بتوجعه ؟

فسألته .

ـ فيه حاجة بتوجعك ؟

فأجاب :

ـ صباعى !

ـ شفت ازاى ؟ قالت الام ، الزلطة مشيت فى جتته .

فلما افهمتها ان الزلطة لايمكن ان تصل الى اصبع الانسان خصوصا وهى بالحجم الذى وصفوه ، بدأت تستعرض الاماكن الاخرى التى يمكن للزلطة ان تربض فيها من جسم الواد .

* فم المعدة من اعلى ، تسده الزلطة وتمنع دخول الطعام فيها .

* فم المعدة من اسفل ، تسده الزلطة وتمنع خروج الطعام منها .

* الامعاء الدقيقة والمصران الاعور ، هناك تتحشر الزلطة وتتسبب فى خروج ما يخرج من حيث لايجوز ان يخرج .

* الكلى التى قد تنفذ الزلطة فيها وتتحول الى حصوة .

* الشرايين التى قد تتسرب اليها الزلطة وتسبب للواد جلطة .

واحتمالات اخرى كثيرة دفعت الام الى استحضار الترمومتر .

ـ اما اشوف حرارته .

ـ بس قرطى ع الترمومتر ليبلعه .

لكى حرارته كانت طبيعية ، ليس الزلط ـ فيما يبدو ـ من الاشياء التى ترفع الحرارة . حرارة هذا الولد على الاقل . ومع ذلك لم يهدأ بال الأم المخضوضة ، فتحت دفتر التليفون وبدأت تتصل بالدكاترة ابتداء من حرف الالف .

ـ اعملى له حقنة ، قال لها الدكتور الاول .

فبدأت تملؤه بالماء كالقربة ، لتران من الماء سيضافان الى فاتورة المياه ولم تنزل الزلطة .

ـ ادى له شربة زيت ، قال لها الدكتور الثانى .

فأعطته اياها ، نزلت الشربة ولم تنزل الزلطة . ومع الشربة نزل عدد كبير من البذور التى تشبه بذور الجوافة دون ان تكون بذور

جوافه .

ـ انت كلت ايه امبارح فى المدرسة !

ـ مس عالف .

وبشيء من التحقيق عرفنا انه كانت عندهم حصة فلاحة البساتين أعطوه فيها بعض البذور ليزرعها ، ولم يكونوا يعرفون بالطبع انه يميل الى استخدام معدته كمشتل .

ـ استنوا عليه للعصر واعملوا له اشعة ، قال الدكتور الثالث .

فانتظرنا الى العصر ، وبرضه لم تنزل الزلطة ، وانما نزلت طائفة جديدة من البذور الكبيرة التى تشبه بذور البرتقال فسألته .

ـ انت ياولد كلت برتقان ؟

ـ لا ، اجابنى ، لالنج .

ـ ايه ؟

لالنج .

ـ قصده لارنج ، قال اخوه الاكبر .

ويشرح لى كيف انه رأى خادمه البيت المجاورة تقطع له ـ للواد الابتلاعى ـ عددا من حبات اللارنج من شجرة مزروعة عندهم .

ـ وليه ياولد ، سألته ، تأكل بذر اللارنج ؟

ـ اصلى ما احبش اللالنج !

فقلت لأمه أيهما ارحم ، زلطة واحدة أو عشرون بذرة لارنج ؟ لكنها اصرت على ان هناك فرقا كبيرا بين البذور والزلط » من اهمها ان هذه بذور وهذا زلط . فسرعان ماكنت احملها فى الفورد ! (ونبيتى كمان) الى طبيب الاشعة . قلعه الطبيب ملطا وكشف عليه

بالاسكرين ، رأى زلطة رابضة فى مكان ما من امعائه الغليظة .

ـ ايه رأيك يادكتور ، سألته ، لوزقيناها بزلطة ثانية ؟

فلم يوافق . لكنه ابدى سروره لأنها وصلت الى الامعاء الغليظة ، معنى ذلك انها ستنزل من تلقاء نفسها ولا الحوجة للجراحة . وقالت له ام الولد .

ـ والاكل ؟

ـ عادى .

ـ آه عادى ، علقت انا ، شوية بذور ، شوية بلى ، شوية زلط حاجات خفيفة كده !

ولكن احدا لم يضحك ، لا زوجتى ولا الدكتور بالرغم من انه قد لهف ثلاثة جنيهات .

وبات الولد وصحى فدخل الحمام ثم خرج فسألته أمه ؟

ـ نزلت ؟

ـ لسه .

واصبحنا ظهرا .

ـ نزلت ؟

ـ لسه .

ثم عصرا .

ـ نزلت ؟

ـ لسه .

ثم دخلت انا الحمام ثم خرجت ليقابلنى الولد بهذا السؤال ؟

ـ نزلت يابابا ؟

كأنه يؤمن ـ ذلك الوغد ـ بنوع من التكامل الفسيولوجى بين افراد الاسرة ، ذلك التكامل الذى وفقا له يبلع هو الزلطة فتنزل من ابيه . فلعنت ابا الجهل واقفلت على باب مكتبى لأشتغل ، وسرعان ما انفتح الباب عن مظاهرة مكونة من الولد وامه وهما يهتفان ويرقصان .

ـ نزلت ! نزلت ! نزلت !

كنت قد نسيت الامر . وقلت لهما :

ـ هى ايه اللى نزلت ؟

ـ الزلطة .

ـ آه . الزلطة ام ثلاثه جنيه !

ـ وهم ثلاثة جنيه كتير على نزول الزلطة ؟!

ـ ثلاثه جنيه كثير على جيبى انا ؟

وضمته اليها وقبلته ثم تركانى وخرجا . . وبحثت عن القلم فلم أجده . . وخشيت أن يبلعه الولد . . فهتفت صارخا . . هات ياولد القلم اللى وكان قدامى !!

ولم يضايقنى سوى الجنيهات الثلاثة التى لهفها طبيب الاشعة بسبب زلطة كانت ستنزل لوحدها ، بالاضافة الى جالون الماء لزوم الحقنة وزجاجة زيت الخروع لزوم الشربة .

الكتكوت المريض !

كما يحدث لبعض الكتاكيت التى يربيها بعض الناس ، انحشر كتكوت من كتاكيتنا فى باب التقفيصة فأصابته بعض التطورات التشريحية غير المرغوب فيها : اذ انتقلت حوصلته من صدره الى ظهره ، والتوى عنقه الى الخلف بحيث اصبح يسير ناظرا وراءه ، هذا اذا وافقنا على تسمية حركته البطيئة العاجزة سيرا .

مسكين طبعا ولكنك تعرف الكتاكيت ، ولذلك قلت لزوجتى مقترحا :

ـ ما تيجى ندبحه ؟

فزغرت لى كأننى اقترحت ذبح احد اولادها ، وحملت المصاب من التقفيصة الى حجرة الجلوس حيث لفته فى بطانية قديمة ، واشعلت بجانبه مدفأة كهربائية ، وسكبت على الجرح الذى فى رأسه نصف زجاجة مكروكروم ، مع ربع كيلو من مسحوق ابيض لا أعرف اسمه ، والشيء الوحيد الذى منعها من أعطائه الترامايسين هو انه

لايوجد عندنا منه .

نظر الكتكوت اليها وهي تقوم بتلك الاسعافات باستغراب ، وبريبة مناسبة للكتكوت الذى لابد قد سمع من اهله ان الناس فى معاملتهم للكتاكيت يكتفون بذبحها . ثم بدا انه قال لنفسه يجوز انني كنت مبالغا فى ذم الطبيعة البشرية ، بدليل انه اغمض عينيه ونام .

لكنه لم يبرأ بالطبع من علته ، فكيف للمطهرات والمساحيق ـ اذا افترضنا انها ستنجح فى علاج الجرح ـ ان ترد حوصلته من الظهر الى الصدر ، وان تعيد راسه الملتوى من الوراء الى الامام !

قلت مقترحا :

ـ بيقول ندبحه . .

فزغرت لى السيدة من جديد ، ومن زجاجة احضرتها من الاجزاخانة وضعت له قطرة . يومان كاملان وهو جالس معى فى حجرة الجلوس ، يخرج رأسه بين الحين والحين من البطانية لينظر الى نظرة خلفية صامته ، ثم يغمض عينيه واظن انه قد مات ، ولكنه ينام فقط .

حتى الاكل لايرغب فيه ، والماء كما تقول زوجتى لايصل الى جوفه ، وانما يسلك من عنقه الملوى مسالك غريبة تنتهى الى منقاره حيث يخرج الماء من حيث دخل ، مما جعلنى اقول مقترحا من جديد :

ـ باقول ندبحه . .

ومتحاشيا زغرتها شرحت لها فلسفتى فى الحكاية ، وهى انه ميت

ميت فلماذا لاندبحه لنريحه ؟ وحتى بفرض انه نجا من هذه الحادثة ، اليس الذبح مصيره على اى حال ؟ فمادام الأمر كذلك ، فلماذا لاندبحه ونريحه من الان ؟

ـ دى اسمها (قالت لى) سفالة !

ـ بقى السفالة (سألتها) انى ادبح مخلوق علشان آكله ، ولا ادبحه علشان اريحه ؟

واستشهدت على كلامى بما سمعت عن ضرب الحصان الجريح بالرصاص رحمة به ، وعن الطبيب البريطانى الذى دس السم للمريض بالسرطان لكى يريحه ، ولكنها قالت لى انه من السخف تشبيه كتكوتنا بأى من الحصان أو المريض البريطانى ، وان اصرارى على ترديد الذبح لن ينتهى الى شىء سوى تشككها الخطير فى صواب رأيها يوم وافقت على اتخاذى زوجا .

ـ الراجل (اضافت) اللى يدبح كتكوت عيان بالوحشية دى ، موش بعيد ابدا انه يدبح مراته وولاده .

فذكرتها بالقانون الجنائى الذى يحمى المذكورين ـ بعكس الكتاكيت ـ من الذبح ، مؤكدا لها اننى سوف اتحدى حتى ذلك القانون مع أولادى ومعها شخصيا ، اذ انا سمعت عن اى منهم ان معدته قد انتقلت من بطنه الى صدره ، أو رأيته داخلا فى الحجرة ورأسه مستدير الى الوراء .

ثم انه لايزعجنى بالمرة ـ قلت لها ـ ان تبقى على ذلك الكتكوت حتى ولو انتقلت مخالبة الى رأسه ومنقاره الى مؤخرته ، وانما يزعجنى جدا ان ارى زوجتى الخاصة تعيش فى ظل هذه المعايير الاخلاقية

المشوشة .
- ايه الفرق من الناحية الاخلاقية (سألتها) بين دبح كتكوت صغير ، ودبح ديك كبير !
فأجابت فى حزم :
- الكتكوت مايقدرش يدافع عن نفسه !
أما الديك - تعتقد - فيستطيع الدفاع عن نفسه ! وهذا بدليل انها هى لاتستطيع ان تذبح الديك ، وتحتاج فى ذلك الى طباخ أو جزار قوى شجاع يمكنه معالجة هذا الموقف الخطير !
- الاصول يبقى لما تيجى تدبح ديك ، ندى له سلاح يدافع بيه عن نفسه !
وجدير بنا وفقا لهذه السياسة الانسانية العالية ان نجعل لذبح الديك اصولا كالمبارزة ، فيقف الديك والطباخ ظهرا الى ظهر ، وأقف انا - رب البيت - لكى أعد من واحد الى عشرة ، بينما يسير الاثنان فى خط مستقيم ، حتى اذا ما سمعا كلمة « اضرب ! » التفتا واطلقا النار ، ومن وقع منهما طبخناه وتغدينا بيه ! !
أو بدلا من هذا نصدر قانونا يحرم ذبح الديوك اصلا ، وتربيها لالشىء الا للمتعة مثل القطط والكلاب ، فلا يبقى امامنا اذا اشتهينا اكل الديك الا ان نلفق له تهمة تستوجب الاعدام لكى نذبحه ونأكله !
كل ذلك لم يقنعها ، ومازالت تصر على ان ذبح الديك بقصد اكله اشرف للرجل من ذبح كتكوت لاراحته من عذاب المرض :
وهذا ما جعلنى اقول لها :
- ايه رأيك نوديه للدكتور ؟

فارتسمت فى عينيها نظرة مستريبة بينما اضفت :
- انا ملاحظ ان الحصالة بتاعتك تقيلة الايام دى . .
ومادامت تحب المريض العزيز الى هذه الدرجة فجدير بها ان تأخذه الى الطبيب البيطرى بخمسين قرشا من الحصالة المذكورة .
- وانت ماتدفعش ليه ؟
- لانى عاوز ادبحه .
فسكتت تتدبر الامر حينا قبل ان تقول فى استنكار .
- خمسين قرش دول يجيبوا ديك عمره سنة واكثر .
وهذا ما يعطى لهذه الحكاية - الى جانب المشكلة الاخلاقية التى تعرضها - مغزاها العميق المستخلص من الطبيعة البشرية ، ان الرحمة عاطفة جميلة يجب ان نتمسك بها حتى ولو على حساب منطقنا ، مادام ليس فيها دفع لفلوس ، ولا فتح لحصالة رصدت لشراء فستان جميل ، لاشك فى انه يمثل قيمة اجتماعية اكبر من القيمة الممثلة فى كتكوت تافه .

محنة الفزدق

فى لحظة من لحظات التهور وجدتنى ادخل محل الياميش لأشترى كيلو جراما من الفزدق ، غير مدرك مدى جهالتى عندما فعلت ذلك .

ما كاد كيس الفزدق يدخل من باب البيت ، حتى حدث فيه هياج كبير كالذى لابد قد حدث بين البحارة على ظهر سفينة كريستوفر كولومبس عندما ابصروا الارض لأول مرة بعد شهور طويلة ، اذ استقبلنى ولدى الأكبر عند الباب والقى نظرة على ما فى الكيس توطئة لأن يصرخ قائلا :

يا ماما ! . . ياماما ! . . بابا جاب فزدق ! بابا جاب فزدق !

ومن آخر البيت جاء صدى الصيحة على لسان ولدى الاصغر الذى سمعته يصرخ قائلا :

ـ فزدق . . فزدق . . فزدق . . فزدق . . !!

صرخات مجنونة تقترب من آخر البيت ، مقرونة بدبيب ثقيل

لأقدام مسرعة ملهوفة ! عجبت كيف يصدر ـ الدبيب ـ من قدمى ولد عمره ثلاث سنوات ، غير عالم بالطبع انه دبيب اقدام أمه.وقد أتت تسابقه وتتعثر فيه

ـ فزدق ؟ ! !

ـ فزدق ؟ ! !

ـ فزدق ؟ ! !

هتافات تدوى حولى ، وأياد تمتد لاختطاف الكيس ، فهششتها وهدأت من حماستها قائلا :

ـ على مهلكم شوية ياجماعة .. أنا عارف انكم ماكلتوش الفزدق من سنة ٥٤ لكن حاسبوا شوية .. لازم تتحكموا فى نفسكم .. لازم تمسكوا اعصابكم .. هه ؟

فأمسكوها ـ اعصابهم ـ ما وسعهم الامساك ، بينما كبشت انا من الكيس كبشة وضعتها فى جيبى وسط زغرات يتمزق منها كيس الفزدق ، ثم كبشت اخرى أعطيتها للسيدة زوجتنا ، ثم كبشة ثالثة للولد الاكبر ، ورابعة للاصغر ، واسرعت نحو الدولاب صائحا :

ـ خلاص .. خلاص .. مافيش تانى .. خلاص باقول. خلاص !

واودعت الكيس داخل الدولاب ، وأقفلت الدولاب بالمفتاح ، واستندت عليه بظهرى وانا الهث ، ولمدة خمس دقائق سادت البيت ظاهرة قلما تسوده ، ظاهرة سكوت الالسن والحناجر ، وذلك لانشغال الاصابع بفتح حبات الفزدق ، والاسنان بمضغ الفزدق ، والحناجر بابتلاعه ، والالسن نفسها بلعق ما يعلق من ملحه على

الشفاه .

ـ كمان !

ـ كمان !

ـ كمان !

ـ لما تموتوا !

مظاهرة صغيرة عقب انتهائهم من الفزدق ، عمدت الى قتلها وهى فى بدايتها وغادرت الحجرة الى حجرة أخرى اقفلتها على نفسى لأكل انا الاخر نصيبى من الفزدق ، ملاحظا وراء زجاج الباب المغلق خيالين لولدين يتسمعان ، توطئة لارتفاع صوت الخيال الاصغر صائحا :

ـ بابا .. انت بتاكل فزدق ؟

فخففت من حدة الكسر والمضغ لحبات الفزدق كيلا تنزل فى بطنى بالسم ، ونفضت كفى من ملح هذا الفزدق وقد انتهيت منه ، متنهدا فى ارتياح .

ومن تلك الساعة خيم على المنزل ما يجوز لك ان تسميه بالشعور الفزدقى العام ، وتحولت انا من رب اسرة عادى له مشاغل ووظائف مختلفة ، الى رجل آخر ليست له الا وظيفة واحدة ، وهى انه حامل مفتاح الفزدق .

وكان الولد الاصغر ـ بالطبع ـ هو اصرح الجميع فى التعبير عن حاسته الفزدقية ، اذ يقول لى فى الساعة الواحدة ـ عشر مرات ـ انه عاوز فزدق ، فأرد عليه ـ بلهجات متفاوته فى شدتها ـ بأن مافيش فزدق ، فينفجر باكيا .

وأما الولد الاكبر فقد علمته الحياة ان يكون اشد حرصا فى الاعلان عن عواطفه ، تلك العواطف التى يضطر الى اشباعها ـ لشدة دفعها له ـ بطرق خفية ملتوية ، اذ اكون جالسا فى حالى فأراه داخلا يصفر لحنا ما ، نحوا من دقيقة وهو يتظاهر بأنه يمسح التراب من ترابيزة ليس عليها تراب ، لأن يقول فى هيئة براءة تامة :

ـ هو يابابا الفزدق ده بيتزرع ؟

فاقول فى إيجاز :

ـ آه .

فيسترسل متشبثا بحق الولد فى الفضول العلمى :

ـ انا أصلى باحسبه بيتصنع . .

ـ لا ، بيتزرع .

فيواصل مسح التراب حينا ثم يقول :

ـ وبيتزرع فين ؟

ـ فى سوريا .

ـ ياه . . هاها . . على كده كويس اننا عملنا وحدة معاها !

وشوية مسح تراب كمان ثم يقول :

ـ هو غالى قوى ؟

ـ آه . . ومانتش واخد ولافزدقة !

هكذا اكيسه لكى اتخلص منه ، فيغادر الحجرة وهو يصفر ليتناسى هذا الفشل .

نعم انني كنت فى كل يوم افتح الدولاب وأعطى كلا من أهل البيت كبشة مناسبة ـ ذلك المنظر الذى كان يذكرنى بساعة اطعام

كلاب البحر فى حديقة الحيوان ـ ولكن ذلك لم يكن كافيا عندهم ، فالكفاية فى نظرهم هى ان ينقضوا على الكيس فيأكلوا كل مابه ويتشاجروا على الفزدقة الاخيرة .

أسبوع كامل تركزت فيه ابصار كل اهل البيت على دولاب المكتب ـ الذى صار اسمه دولاب الفزدق ـ وعلى الرجل البغيض الذى يحمل مفاتيح الفزدق . فكنت اذا دخلت حجرة المكتب احسست بست آذان مرهفة نحوى من بعيد ، مخافة ان أكون قد دخلت لافتح الدولاب وآكل الفزدق . وكنت اضع يدى فى جيبى واخرجها فتتعلق بها الابصار ، لعلها تطلع وفيها شىء من الفزدق .

بل ان الموقف صار اخطر من ذلك بالنسبة لى ، اذ بدأت اشعر بجو عدائى شائع بين كافة افراد الاسرة ، وبأن الابتسامات التى تصوب الى أصبحت مقتضبة باهتة ، والردود التى يعلق بها على كلامى مقتضبة فاترة ، وبأننى لن استرد مكانتى فى ذلك البيت الا اذا خلا الدولاب من الفزدق .

حقا انى عاندت ما وسعني العناد ، ولكن اعصابى ما لبثت ان اخذت تنهار ، اذ بدأت انا الاخر ـ صدق أو لاتصدق ـ اكره نفسى ، واتضح لى مغزى كلمة برنارد شو ـ بكل مافيها من سخرية مريرة : ان أشد الناس قلقا فى السجن هو السجان .

فالى الدولاب قصدت ، ومنه اخرجت الكيس ورقعته أمامهم على المائدة وأنا أقول :

ـ اتسمموا ! . . اطفحوه كله واعتقونى . .

فانقضوا عليه انقضاض القرصان على شحنة ذهب فى البحر

الكاريبى ، أو انقضاض جيوش التتر على مدينة بغداد ، أو انقضاض سكان لندن على صفيحة جاز أيام العدوان الثلاثى الغاشم ، أو أى انقضاض آخر يناسب مزاجك فى مثل هذه الشئون .

هكذا راح الفزق ـ الله يرحمه ـ وعادت الى راحة البال ، وإن كانت لم تعد بعد كاملة . اذ مابرحت الى هذا اليوم ـ بعد مرور اسبوع كامل ـ اجلس فى حجرتى ويصدر منى أى صوت طرقعة صغيرة ، فاذا بصوت الولد الصغير يصيح من خلف الباب ؟

ـ يابابا . . . . أنت بتأكل فزدق ؟

وأحيانا يكون تخمينه فى محله ، فهل كان من الممكن ان أسلمهم الكيس دون ان أحتجز لنفسى منه كبشتين ثلاثة ! !

ممنوع الهرش

شاهدت فى التليفزيون فيلما قصيرا عما لا يجوز ان تفعله المرأة المهذبة ، ذكرنى بأكثر من موضوع قرأته فى اكثر من مجلة عربية وأفرنجية عما لايجوز ان تفعله نفس المرأة المهذبة ، ومن ذلك ـ سيبك من الحاجات التانية ـ انه لايجوز لها أن تهرش أمام الناس .

لماذا لايجوز لها ان تهرش اذنها أمام الناس لا أدرى ، ولكنه لايجوز وخلاص . يجب عليها اذا ماأحست بالاكلان فى أذنها أن تبدأ بتجاهله لعله يروح لوحده ، فاذا لم « يروح » فأياها أن تعلن الامر أمام الناس ، بل تحافظ على ابتسامتها العذبة التى تواجه بها جلساءها ، حتى اذا انتهى محدثها من جملته المفيدة ـ مهما كانت طويلة ـ نهضت قائلة له عن اذنك ، وخرجت من الحجرة وعبرت صالة المنزل . متجهة الى الدهليز المظلم المؤدى الى المطبخ حيث هناك تتوارى وتهرش . فاذا ما انتهت من الهرش المحكم الذى يضمن لها عدم عودة الاكلان لمدة طويلة ، عدلت بالمرة فستانها

ونظرت فى المرآة ثم عادت الى ضيوفها وجلست بينهم بابتسامتها العذبة السابقة كان شيئا لم يحدث .

· هذا ما يجب ان تفعله المرأة المهذبة ، وما السر فى وجوبه لا ادرى . هل نريد ان نقول مثلا ان المرأة بعكس الرجل لاتأكلها اذنها أبدا ؟ ان هذا مستبعد طبعا بسبب علمنا بأن الاكلان شىء مقدر على الجميع ، فلماذا تمنع المرأة دون الرجل من اعلان تعرضها لحالة الاكلان فى وقتها ، ولماذا نفترض أنها تنقص من شأن نفسها برفعها الى أذنها أصبعا صغيرة تزيل مابها من الحكة ، ويرد اليها راحتها النفسية المسلوبة ! !

فلو كانت الحكاية مقصورة على الأذن لهان الأمر ، ولكن المرأة المهذبة ليست ممنوعة من هرش اذنها فحسب ، وانما من هرش رأسها ايضا . نعم ممنوع عليها هرش رأسها أمام الناس ، وذلك ـ فى أغلب الظن ـ تحاشيا لما قد يدور فى رءوسهم الخاصة من ان فى رأسها حشرة من نوع ما ، وهى فكرة سخيفة طبعا . فأنا المتفرج على السيدة الهارشة أعرفها من زمان ، واحترمها بدليل انى أزورها وأسمح لها بزيارتى ، فلماذا افترض ـ بمجرد رؤيتى لها وهى تهرش رأسها ـ ان فى المسألة عنصرا حشريا ؟ كيف أسمح لهرشة صغيرة من السيدة لراسها بأن تهدم كل ماأحله لها من الاحترام ، وتنسينى كل ما أعلم عن تاريخها النظيف ، وتجعلنى أقلبها للفور فى ذهنى من سيدة محترمة الى امرأة مقملة ؟ ؟ ؟

بل لنمشى مع الفرض الى نهايته ، ولنسلم بأن ثمة قملة قد تسربت الى راس السيدة بطريقة ما . . ايه يعنى ؟ من منا يستطيع

ان يقسم ـ مهما كان نظيفا ـ ان يده لم ترتد من رأسه فى يوم من الايام وفيها قملة صغيرة طارئة ؟ أى نقص فى مكانته الاجتماعية أو مركزه الادبى قد حصل بسبب عثوره على تلك القملة الترانزيت ؟ لقد كان فى الدنيا دائما قمل ، وسيكون فيها دائما قمل ، فايه يعنى ؟ ؟

انى اعتقد ان تحريم الهرش على المرأة ماهو الا نوع من التجميد لشخصيتها والانكار لبشريتها ، ومحاولة رجعية لتثبيتها فى شكل دمية للبيع .

وفى هذه اللحظة بالذات اكتشف ـ فجأة كده ـ سر احتجاجى على هذه الفلسفة اللاهرشية ، وهو اننى انا شخصيا مقروص منها ، بسبب قريبى الذى شخط فى ذات يوم منذ ثلاثين سنة قائلا لى :

ـ عيب يا ولد . . ماتهرش فى الشارع !

ولم تكن التى اهرشها أذنى ولا رأسى وانما ساقى التى اكلتنى فجأة ، وكنا نسير فى شارع قذر ببلدة جنزور منوفية ، وهو ـ قريبى ـ الذى اخذنى الى تلك البلدة للفسحة ، وهو الذى عرضنى للدغ ناموسها وذبابها ، ومع ذلك يريد ان يمنعنى من الهرش ، مع اننى ولد مهذب ولست سيدة مهذبة .

الشارع طويل وهدفنا منه بعيد ، فكيف احتمل القرصة طوال تلك الدقائق التى تفصلنا عن هدفنا ؟ اليست هرشة سريعة تريحنى ، خيرا من ان يستبد الالم بساقى المقروصة فأقطع المسافة كلها وانا أتلوى واتثنى واتحنجل وأقول اف ؟ ! ماهى الغرابة فى ولد صغير يهرش رجله ؟ وماذا يفعل الانسان لكى يواجه ماقد يتعرض له فى الطريق من ناموس الأرياف ؟ هل يأخذ معه خيمة صغيرة ملفوفة

تحت باطه حتى اذا ما أحس باللدغة نصبها فى الطريق ودخل فيها وأحكمها على نفسه لكى يهرش رجله ، توطئة لان يفكها ويطويها ويحملها تحت ابطه ثم يواصل السير؟

الحمد لله ان اصحاب هذه الفلسفة لم ينجحوا حتى الان فى تولى السلطة التشريعية فى اى بلد من البلاد ، والا لاتخذ الامر صفته القانونية ، ولرأينا بوليسا للهرش على نسق بوليس الاداب ، ولوجد اكثر من واحد منا نفسه فى التخشيبة بتهمة الهرش الفاضح فى الطريق العام ! وكان يكون من واجبات البلدية أو الصحة ان تواجه الامر بما يلزم له ، فتبنى فى مختلف الشوارع ـ على مسافات متفاوته حسب حظ المنطقة من الناموس ـ اكشاكا صغيرة مكتوبا عليها « مهرشة عمومية » ، لكى يدخل اليها كل من يشعر فى الطريق بأكلان مفاجىء . وبالطبع يكون بعض تلك الاكشاك للرجال وبعضها للسيدات ، لكيلا يهرش الجنسان امام بعضهما البعض وتبقى فضيحة ! وللحالات المستعجلة تقام اكشاك بفلوس ، يضع المقروص فى بابها قرشا مثقوبا فتنفتح له من فورها لكى يدخل ويهرش بدلا من انتظاره فى الطوابير بين سائر المقروصين .

نعم ، أعتقد ان بعض الناس يحبون ان يزودوها حبة فى منع الاشياء ، وهم فى ذلك مسئولون عن النتائج التى تحدث بسبب تمرد الممنوعين . فبسبب شخطة قريبى فى منذ ثلاثين سنة ، لا اكاد اليوم اشعر بأى اكلان فى رجلى او غيرها حتى أعمد الى الهرش حتى اذا كان اكلانا من النوع الذى يروح لوحده ، وحتى ـ أو قل لاسيما ـ اذا كنت فى مكان عام . بل اننى فى كثير من الاحيان أهرش بدون أى

أكلان ، لمجرد استمتاعى بعملية الهرش ، وذلك بعد ان أصبح له عندى متعة مزدوجة ـ متعة التمرد ، الى جانب متعة التخلص من الاكلان .

فى اجدعها كازينو عام اشعر بالاكلان فى ركبتى فلا احكها برفق من فوق البنطلون وانا اخفى يدى تحت الترابيزة ، بل على العكس من ذلك أدفع مقعدى الى الخلف ، وارفع الساق المصابة لكى اضعها على الساق الاخرى ، توطئة لتشمير البنطلون الى موضع القرصة منحنيا عليها لكى افحصها واتعرف نوعها واتبين أسبابها ، ثم أبدأ أنزل البنطلون أبدأ بهرشها فى دقة حتى تحمر ، فأخرج منديلى وأنفضها به ، ولا أنزل البنطلون أبدا قبل ان افتشه بامعان وأبحث فى ثناياه عما يمكن ان يوجد هناك من الكائنات القارصة .

لعبـــة مـــخ

بصفتى شاهد عيان للحادث أجد لزاما على ان أكتب هذا التقرير المفصل عنه ، بالامانة التامة التى تتيح للعدالة أن تأخذ مجراها .

أتت جلستى فى تلك القهوة بالقرب من مائدة يجلس اليها الرجلان بطلا القصة ، احدهما اسمر اللون سمين بكرش ، والآخر اصفر اللون نحيف بنظارة . اذ قال أبو كرش لابى نظارة :

— تلعب طاولة ؟

فبدا الازدراء على وجه الآخر وقال انه يفضل الشطرنج . .

— الطاولة دى لعبة عيال ، قال شارحا ، الشطرنج لعبة عايزة مخ

— بس أنا موش قوى فى الشطرنج ، قال الآخر معترضا :

— معلهش امرنك

وصفق للجرسون الذى أحضر الشطرنج ، وسرعان ما بدأ اللعب .

— لعبة مخ ، قال أبو نظارة وهو يشير الى دماغه .

وخيم عليهما ما خيم على لاعبى الشطرنج من صمت عميق ، اذ نقل ابو نظارة عسكريين فنقل ابو كرش عسكريا واحدا ، ثم نقل الفرس خطوتين الى الامام ، ثم نقل الوزير فقتل به العسكرى الواقف أمام الملك مباشرة

— كش ملك يا حلو ! قال الرجل البدين بانتصار :

— بايه ؟

— بالوزير .

— طب حا اقتله ؟

- والفرس دى راحت فين ؟

فراح ابو نظارة يتفرس فى اللوحة بالقدر المناسب من البلاهة ، غير مصدق انه يمكن ان ينهزم بهذه السرعة .

- ازاى ما اخدتش بالى م الفرس دى ؟ قال بدهشة وغيظ :

- اسأل نفسك بقى ، قال الآخر : اصلها لعبة مخ !

- يظهر انى استهترت بيك . انت بتلعب كويس . انا ح اصحى لك

وسرعان ماكان يعيد ترتيب قطعه متهيئا للدور الثانى ، بينما راح الآخر يتغنى بانتصاره.

- اما حتة دور يا اولاد ، قال بسرور : تلت نقلات وغلبتك !

طول بالك ، قال الاخر بابتسامة صفراء : دلوقت أوريك .

من جديد خيم الصمت والرجلان عاكفان على اللوحة ، انشغلت عنهما حينا ثم انتبهت على صوت الرجل السمين يقول كش

ملك . فنظرت الى الرقعة لكى أرى ملك الرجل النحيف محاصرا بست قطع على الاقل وليس له من مخرج

- موش معقول ، قال الرجل النحيف بغيظ بالغ :

- هاها ، قال الاخر ، تلعب دور تانى ؟

- طبعا ، دنا لازم اصحى لك تمام

وعادا يرتبان القطع ، وأخرج ابوتظارة منديله ليمسح العرق من جبينه

- انما الدور اللى فات كان امتع ، قال البدين ، تصور اغلبك بتلات نقلات ؟

وبينما هو يرتب قطعه راح يدندن بأغنية صغيرة من تاليفه وتلحينه ومع الغناء شىء من الترقص يبدو انه غاظ الآخر فشخط فيه قائلا :

- بلاش دوشه بقى خلينا نلعب !

النحيف قد إنطبق فكاه بشدة حيث عكف على الرقعة ، واضح من أمره انه قد صمم على كسب هذا الدور بأى ثمن . المسألة بالنسبة له لم تعد لعبة وانما معركة حامية ، معركة يتقرر فيها مصير كرامته كلها . وبينما انهمك فى التفكير العميق عاود الآخر دندنته بصوت منخفض لكيلا يزعجه .

- بتلات نقلات وغلبته ، بتلات نقلات وغلبته .

وفجأة نقل النحيف فرسا وقد تراءت فى عينيه نظرة فرح وحشى .

ملك ووزير ! قال بانتصار ساحق .

اذ ان الفرس - ان كنت لاتعلم - يمكنها ان تطلب قطعتين متباعدتين ، فكان البدين مضطرا لكى يعيش ملكه ان يضحى بالوزير ، واللعب بغير الوزير يكاد يجعل الهزيمة امرا محتوما .

- تسلم ؟ قال النحيف بلهجة متشفية .

- وليه ؟ يمكن ربنا ياخذ بيدنا من غير وزير .

وانشغلت عنهما حينا ثم انتبهت على صوت الرجل البدين وهو يقهقه . فنظرت الى كرشه الذى يهتز بشدة ، والى وجه الاخر الذى اجتمعت فيه كمية من الدماء لا اذكر انى رأيتها فى اى وجه آخر ، اذ حدث غير الذى كان متوقعا ، نجح الرجل الذى لاوزير له فى هزيمة الرجل الذى له وزير .

- عملت ايه بوزيرك ياحلو ؟

فلم يجب الرجل بشىء . . مكتفيا بالتطلع فى غيظ قاتل الى ملكه المزنوق فى الركن بين فرس وفيل وطابية - اتعس ملك رايته فى حياتى - وقال الرجل البدين :

- موش قلت لك تلعب طاولة احسن .

فظل الاخر متمسكا بالصمت .

- تلعب تانى والا كفاية ؟

فأجابه الاخر بأن شرع يرتب القطع من جديد بيد تشوبها رعدة واضحة ، بعكس اليد المرحة التى راح البدين يرقب بها قطعه ، معاودا الدندنة بالاغنية التى ادخل عليها من التعديل مايناسب الموقف الجديد .

- من غير وزير وغلبته ، من غير وزير وغلبته !

- حتبطل دوشة ولا اقوم !

- حقك على ياسيدى ، العب .

وغاصا من جديد فى اللعب ، كلما نقل الرجل البدين نقلة قال لنفسه لعبة مخ ! اما النحيف فغارق فى التفكير يعتصر كل خلية فى مخه المحموم ، لم ينبس طول اللعب بكلمة واحدة .

- من غير وزير وغلبته ، دندن السمين ، من غير وزير وغلبته .

وكان هذا الدور طويلا نوعا ، مر ربع ساعة كامل قبل ان اسمع صوت الرجل السمين يقول : كش ملك . قالها هذه المرة بهدوء مريب ، فنظرت الى وجهه النحيف ورأيته شاحبا باهتا اشبه بوجه رجل ميت . ملكه قد انحصر من جديد بين فيلين وفرس . لو انهما سيأكلان الرجل لا ملكه لما بدأ عليه كل هذا الرعب القاتل واليأس المرير . هو يحملق الى الرقعة فى ذهول ، والاخر يحدق فيه بسخرية صامته ، واخيرا شرع جسمه يهتز بضحكة مكتومة مابرحت ان تحولت الى قهقهة عالية وهتف وهو يضرب كفا بكف :

- اربع تدوار ياعالم . . اربع تدوار

ونهض الى التليفون القريب وشرع يطلب رقما .

- الو مصطفى ؟ ازيك يامصطفى ؟ ما جيتش القهوة ليه النهاردة دنت يابنى فاتك حته منظر .

وشرع يحكى له القصة كلها ، قصة الادوار الاربعة التى انتصر فيها على الرجل النحيف الذى عرفت ان اسمه احمد ، كيف غلبه مرة بثلاث نقلات ومرة اخرى بغير وزير الى آخر مامر من التفصيلات

ثم وضع السماعة وطلب رقما آخر ، واذا به يطلب صديقا ثانيا لكى يحكى له اخبار ماسماه فضيحة عالمية ـ ثم طلب صديقا ثالثا حكى له نفس الحكاية ، وبينما يحكى يضحك وكرشه يهتز ، ويختلس النظر الى الرجل النحيف لكى يرى وقع الامر عليه . وهذا يستمع فى صمت مرير وذلة ومهانة ، احيانا يبتسم ابتسامة صغيرة مرتعشة كأنه لايكترث بالأمر ، واحيانا ينتفخ وجهه بالدماء ، وطول الوقت يمسح العرق عن وجهه الشاحب شحوب الموت .

وطلب الرجل البدين رقما رابعا ولكن احدا لم يجبه فوضع السماعة .

ـ ياخسارة ابو درش موش موجود عشان احكى له .

وهم بأن يجلس ثم غير فكره وقال للرجل النحيف :

ـ مراتك موجودة فى البيت ؟

ـ وده عشان ايه بقى ؟

ـ عشان اكلمها واحكى لها ، والا اسيبك تروح تمعر وتقول انك غلبتنى ؟

واتجه الى التليفون وشرع يدير القرص ، لكنه لم يتح له ان يديره اكثر من مرتين لاغير . اذ رأيت الرجل النحيف يتناول زجاجة الكازوزة الموضوعة بجانبه ويضغط عليها بقوة ، لحظة من التردد واذا به يرفعها ويرسلها كالصاروخ نحو الرجل البدين .

كان منظرا بشعاً جدا ، منظر ذلك الرجل حيث سقط على الارض والدماء تسيل من ثقب عميق فى جبينه . ولعل هذا هو السبب فيما حدث للرجل النحيف الذى رأيته يتهالك على كرسيه

وهو يبكى كطفل صغير .

ذلك هو تقريرى عن الحادث ، اهديه الى القضاء لكى يحيط بالظروف الكاملة للحادث ، لعله يقتنع بأن الرجل النحيف لم يتعمد قتل الرجل البدين فيطبق عليه مايسمى بالظروف المخففة ، انا شخصيا اعتقد ان الرجل البدين يستحق ماجرى له ، فما رأيك انت ؟

كيف تهرب من المنادى ؟

صحيح ان القرش الذى ادفعه لمنادى السيارات ليس مبلغا كبيرا ، ولكننى أعانى عند دفعه ألما شديدا ، ليس ذلك لأننى لاقدر الله انسان بخيل ، وإنما لاعتقادى بأنه قرش لايوجد أى شىء يبرره . لو أن المنادى ينادى على سيارتى لاستحق ذلك القرش ، ولكننى لم أسمعه ينادى عليها أبدا . وحتى لو نادى عليها فكيف تأتى اذا كنت أنا لست فيها ؟ قد تقول ان القرش الذى يأخذه الشحاذ هو الأخر بلا مقابل ، ولكن من قال لك انى أعطى القروش للشحاذين ؟ وحتى لو فعلت فأنا أعلم ان ذلك القرش سوف يبنى لى قصرا فى الجنة ، فمن الذى يكره ان يدفع قرشا ويظفر بقصر فى الجنة أو حتى بشالية ؟

أنا أركن سيارتى « فورد ٥١ ونبيتى كمان » وأقفلها بالمفتاح وامشى ، لماذا يجب على أن أفترض انى قد تركتها عهدة عند المنادى ؟ السيارة سيارتى والشارع شارع الحكومة ، بأى حق يقرر المنادى لنفسه قرشا عن كل سيارة تقف فى ذلك الجزء من الشارع ؟

ستقول ان هناك لصوص سيارات ، وانا أقول لك ان هناك نشالين أيضا . اذا كانت الشرطة لاتسطيع ان تحمى سيارتى من ان تسرق ، فهى لاتستطيع ان تحمى محفظتى من ان تنشل . وبناء على هذا المنطق كان يجب ان يكون هناك منادى محافظ ، كلما ركبت الاتوبيس دفعت له قرشا لكى يراقب جيبى وأنا منهمك فى قراءة الجريدة أو البحلقة فى الراكبة الحسناء أمامى . كذلك يوجد خطافون للاطفال ، فكان لازما ان يكون هناك منادى أطفال ، كلما خرج طفلى من البيت دفعت له ـ المنادى ـ قرشا لكى يراقب الولد ويمنع عنه الخطافين .

نعم يحدث أحيانا ان يبذل المنادي بعض الجهد ، كان يدفع السيارة التى أمامك ليفسح لك الطريق ، ولكنه فى الغالب هو المسئول عن وجود تلك السيارة . هو الذى تعمد الصاقها بسيارتك لكى يضمن أنك لاتخرج من الصف الا بإذنه ، فاذا مادفع تلك السيارة فهو يأمرك بأن تجيب ورا شوية ، قائلا لك طول الوقت هات ، هات ، هات ، بس ! كأنه لو لم يقل لك هات لما جبت ، ولو لم يقل لك بس لدخلت فى السيارة التى خلفك وظللت تدفعها إلى الأبد . ثم هو يأمرك بأن تكسر الديركسيون كله جهة الشمال وتستعدل الوش ، كأنه لو لم يقل لك ذلك لكسرت جهة اليمين وطلعت على الرصيف . تعليمات لا لزوم لها أشبه بالاهانات ، تلك الاهانات التى يعتقد انه يستحق فى مقابلها قرشا .

نعم هو قرش لايوجد لدفعه أى مبرر ، وهذا رأى اعتقد انك توافقنى عليه بشدة . فما قولك فى ان نتداول فى الامر لكى نعثر على

طريقة نتخلص بها من دفع ذلك القرش ؟

هناك بالطبع تلك الطريقة الكلاسيكية وهى اخراج جنيه للمنادى مطالبا اياه بأن يفكه ، ولكننى لا أحبذ تلك الطريقة . من ناحية قد يتصادف ان يكون معه فكه ، فيركنك ساعة وهو يعد الفلوس ، وبعد ان يعدها تنكسف ان تفك جنيها لتدفع قرشا فتعطيه قرشين . ومن ناحية اخرى لا أذكر اننى أخرجت الجنيه الى المنادى الا ونقل بينى وبينه نظرة ازدراء توطئة لان يقول لى بلهجة تسامح كاذب :

ـ معليش يابيه .. خلي .. يبقى لنا عندك !

فادس الجنيه فى جيبى واتحرك بالسيارة ، ما أكاد أبتعد بها مترين حتى يصلنى صوت المنادى وهو يقول :

ـ قديمة قوى ! مابناكلش منها !

حقا اننى أعرف انها قديمة ولكننى اتضايق ، مزعج جدا ان تعرف ان المنادى يظن انك لاتعرف انها قديمة . ولذلك فأهون فى نظرى من هذه الطريقة ان تجاهر بمبدئك وتضع الامر على بلاطة ، وذلك بأن تصعد الى سيارتك وتديرها غير محتفل بالمنادى الذى يقف من خلفك قائلا هات . هو يقول لك هات وانت ولاهنا ، تستعدل السيارة وتنطلق بها دون ان تنظر اليه كأنه غير موجود . حقا انك ستسمعه بعد خطوات يتحدث عن بهوات آخر زمن وما الى ذلك ، ولكنك يجب ان تتحمل نتيجة عملك ككل أصحاب المبادىء .

لذلك ـ لكى تتخلص من هذه المزعجات ـ انصحك بأن تتبع الطريقة الثالثة التى أتبعها انا بنجاح كبير فى معظم الاحيان .

عليك فى البداية ان تنزل من السيارة التى ركنتها بدون ان تنظر

الى المنادى أصلا ، وان تمر بسرعة وانت تشيح عنه بوجهك ، وذلك لكيلا يعلق شكلك بذاكرته . ومما يفيد فى ذلك ان تكون ثيابك ذات ألوان هادئة غير صارخة ، لكيلا ينتبه اليك الرجل وأنت تعود الى السيارة بعد حين .

فإذا عدت فللعودة أصول ، خصوصا وانت تقترب من السيارة . لاتقترب منها من ناحية باب السائق لكيلا ينتبه المنادى الى انك صاحبها ، ولاتخرج المفاتيح من جيبك لكى تنتفى عنك تهمة امتلاك السيارات أصلا . فاذا ما وصلت الى السيارة فلا تتوقف عندها بل واصل السير متجاوزا اياها ، حتى اذا ماتصادف ان لمحك الرجل ظنك عابرا عاديا والتفت الى الجهة الاخرى . وياحبذا لو كنت قد رفعت ياقة البالطو لتخفى بعض وجهك مع لبس نظارة سوداء . كلا ، لا لزوم لتركيب لحية مستعارة لان الحكاية لاتحتمل بالطبع كل هذا التعقيد .

ها انت قد تجاوزت السيارة ببضع خطوات فيمكنك الان ان تلتفت الى الوراء للتأكد من انشغال المنادى عنك . ببطء شديد تعود نحو السيارة ، مقتربا لا من باب السائق وانما من الباب الايمن الذى تدخل منه زوجتك . افتح الباب برفق وادخل ، ثم لاتقفل الباب بقوة وانما بحذر شديد ، فانت تعرف ان اذن المنادى لاتغيب عليها أى « تكه » لباب السيارة مهما خفت .

بنفس الحذر تنقل الى مكان السائق وتضع المفتاح فى الكونتاكت دون ان تدير المارش .

عليك اولا ان تلوى الديركسيون وتستعدل الوش وتهيىء السيارة

للخروج ، وبعد ذلك تدوس الديرباج وتعشق الفيتيس وتضع قدمك على مفتاح البنزين ، وأخيرا جدا تدير المارش . بمجرد ان تديره ستسمع صوت المنادى صائحا « أيوه ! . . » ولكن بعد فوات الاوان طبعا ، فهو لم يسمعه الا فى اللحظة التى انطلقت فيها بالسيارة وبسرعة خمسين كيلو . وفى المرآة تراه وهو يشرع فى الجرى نحوك ثم يكتشف عدم جدوى ذلك فيتوقف فى غيظ وخيبة أمل .

نسيت ان أقول لك ان تبقى زجاج النوافذ مغلقا ، اذ يحدث احيانا ان يعترض طريقك شيء يضطرك الى الوقوف ، فيأتى المنادى جريا ويحصلك . فاذا فعل ذلك فلن يستطيع ان يكلمك لانك لن تسمع صوته من وراء الزجاج المغلق . حقا انه قد ينقر على الزجاج منبها اياك الى نفسه ـ حصلت لى مرة ـ ولكنك تستطيع بالطبع ان تنخرط فى موجة مفاجئة من السعال العنيف الذى يشغلك عنه . فاذا مازال الشيء الذى يعترض طريقك وعاودت السير . . فسوف ترى فم المنادى يتحرك بكلمات ما ، لكنك من وراء الزجاج المغلق لن تستطيع ان تميز شتمة واحدة . ويمكنك الان ان تفرج عن الضحكة التى مابرحت تكتمها ، ضحكة الانتصار على المنادى والخلاص من قرش لا لزوم له . فاذا نفذت هذه الخطة فوالله ان المنادين لمعذورون فى الكلام عن بهوات آخر زمن !

واحد براندى

كان عباس غلاما طويلا نحيفا من يوم التحاقة بذلك البار الصغير ، وكانت أمه تقول ان العمل سوف يفتح شهيته للطعام فيأكل كثيرا ويسمن ، ولكن الايام اثبتت عكس ذلك ، وكأن كل عام من الاعوام يزيده نحافة وطولا ، وذلك بالرغم من أن شهيته قد انفتحت كما توقعت أمه .

طويل هزيل ضيق الكتفين صغير الرأس يسعى بين موائد البار كأنه عود كبريت طويل ممطوط ، أوكأنه عود كبريت أضيف الى عود آخر وربطا عند التقائهما بفتلة خيط ، ولذلك يبدو خصره مخلخلا شبه مفكوك ، مثل دميه طويلة متدلية من خيط فى مسرح العرائس

ـ واحد براندى ياعباس .

ـ حاضر . . واحد براندى .

ـ صحن فاصوليا ياعباس .

حاضر . . صحن فاصوليا .

وكان صوته مجوفا بالرغم من ضيق صدره ، صدره النحيف فى

الصديرى الاسود ذى الظهر الساتان اللامع ، الذى تتدلى تحته الفوطه الدبلان الطويلة الصفراء . وكان يحب الطاعة وسرعة التنفيذ ، من ناحية لأن السكارى لايقبلون البطء ولا يغتفرونه ، ومن ناحية اخرى لانه كان دائما غلاما طيبا ومطيعا ، وبالرغم مما يوحى به طوله من معنى التمرد .

عندما صار رجلا كان رجلا مطيعا أيضا . ولذلك مرت عليه خمس عشرة سنة وهو فى نفس البار ، لم يسمن ولم يتغير ، ولم يطرأ عليه جديد سوى الصلع الذى مشى فى رأسه الصغير ، كما اصبح صوته مجوفا أكثر من قبل وهو يقول للزبائن حاضر ، أو يقولها للخواجة صاحب البار ، أو يقول لنفسه وهو يسعى بين الموائد : الصبر يارب .

كان يشعر انه محتاج للصبر اكثر فى فترة المساء عندما يكثر الزبائن وتتعاقب الطلبات ، ولذلك كان يفضل فترة الظهر عندما يوجد فى البار خمسة أو سته زبائن ، معظمهم من الخواجات الذين يتكلمون بلغات تريح سمعه لانه لايفهمها ولا يتابعها ، وبينهم اثنان أو ثلاثة من المصريين وكلهم هادئون يشربون فى صمت ووقار بعكس زبائن الليل .

وكان اشدهم هدوءا ذلك الافندى الذى يجلس فى الجزء الداخلى وراء حاجز الزجاج المسنفر ، كأس الكونياك فى يده اليمنى وعيناه شاردتان الى الحائط الابيض امامه ، أو الى البلاط الابيض تحت قدميه ساكتا لاينطق الا بحساب ، وبأدب شديد قلما يوجد فى زبائن البارات . ولذلك - لشدة نفوره من الضجيج - كان يناديه بطريقة خاصة به ، لا بالصياح كغيره قائلا ياعباس ، وانما بطرقتين من

الكوب على رخامة المائدة - طرقتين صغيرتين حازمتين تعلم عباس ان يحفظ معناهما ، وهو ان الاستاذ يريد كأسا جديدة من الكونياك .

- تك تك !

ترن الطرقتان الدقيقتان من وراء الحاجز الزجاجى فيصيح عباس من آخر البار بصوته الاجوف قائلا :

- واحد براندى !

ويذهب بالكأس الجديدة فيسكبها فى الكأس الفارغة متلقيا كلمة شكر مؤدبة رقيقة من الافندى الهادىء الوديع .

احيانا كان يغتاظ منه ويقول لنفسه لماذا لا يناديني مثل سائر الزبائن ؟ لماذا يصر على استدعائى بهاتين الطرقتين المنتظمتين ، ولماذا لم يجعلها - مثلا - عدة طرقات صاخبة تزيل من الجو هذا الروتين الجامد ؟ ولكنه يعود فيقول ان الطرقتين احسن من غيرهما ، احسن من الصراخ باسمه فى هيئة تشبه الشخط ، واحسن - قطعا - من الالفاظ التى يستخدمها بعض الزبائن فى صراخهم فيه - عندما يتأخر عليهم - قائلين فين البيرة يازفت !

فى اول الامر - منذ سنوات عديدة عندما بدأ ذلك الافندى يتردد على البار - كان يجد صعوبة فى تكييف نفسه مع هاتين الطرقتين ، وكان يسمعهما فلا يكترث بهما لظنه انه ارتطام عادى بين الكوب ورخامة المائدة كالذى يحدث على كافة الموائد . ولكنه كان كلما اهملهما - الطرقتين الحازمتين - يسمعهما تتكرران من جديد ، بنفس الايقاع ونفس الحزم ، مع ارتفاع نسبى فى درجة الصوت كأنهما توبخانه على اهماله للطرقتين السالفتين . ومن هنا تعلم الا يهملها ، وادرك انهما لاتصدران من ذلك الافندى الا بحساب دقيق ووفقا

لخطة مرسومة .

واحيانا كان يحدث العكس ، اذ يسمع طرقة واحدة فيذهب لتلبية النداء ، ولكنه لايقابل من الافندى بغير نظرة استهجان وهو يدمدم بما معناه :

ـ حد نده لك ؟

فيخجل وينصرف مرددا تعليقه الوحيد فى مثل هذه الالتباسات ـ معلهش يابيه . الزبون يشرب وانا نسكر !

وهكذا روض اذنه على ان يهمل اصطدام الكوب بالرخامة مرة واحدة ، او مرتين متباعدتين ، أو ثلاث مرات طبعا ، او أى عدد أو شكل صوتى آخر . فاذا مارن فى البار صوت طرقتين حازمتين ، أدرك انه مكلف بأن يصرخ بصوته الاجوف قائلا :

ـ واحد براندى !

وبمرور الاسابيع والشهور والاعوام كفت تلك العملية عن ان تكون عملية حسابية شعورية ، واصبحت اشبه برد الفعل العكسى الذى يتم بدون تدبير ، اذ ترن الطرقتان فى اذنه فينطلق صوته ـ بدون اى تدخل ارادى من مخه ـ قائلا :

ـ واحد براندى !

وبلغ من دقة استجابته للطرقتين انه سمعهما ذات يوم فصاح قائلا : واحد براندى ، وقصد بالطلب الى المائدة المعروفة لكى يفاجأ بأن عليها زبونا آخر . وهو أمر كان يجب ان يعرفه لأنه ـ الافندى صاحب الطرقتين ـ لم يحضر الى البار اصلا ، ولانه قد حمل بنفسه الى هذا الزبون الاخر زجاجة بيرة ! فلما اظهر الزبون دهشته من ان يحضر له كأسا من البراندى دون ان يطلبه ، رفع يده ليلوح بها

بجانب رأسه الاصلع الصغير قائلا :

ـ معلهش يابيه . . الزبون يشرب وانا نسكر !

ككل الناس كان عباس فى تلك السنوات قد تزوج ، وكبعض الناس كان قد انجب ثمانية اولاد وبنات ، لانه كان يؤمن بأن منع النسل شىء حرام . ولذلك ـ بسبب هذه الافواه العديدة ـ ازداد تفانيا فى عمله فى البار ، وازداد اخلادا الى الطاعة وكلمة حاضر ، ولعل هذا ماجعل الخواجة يرفع مرتبه من ثلاثة جنيهات الى أربعة ، وماكان يبسط ايدى الزبائن بالبقشيش ، هذا يعطيه قرشا وهذا قرشين ، والافندى صاحب الطرقتين يعطيه ثلاثة قروش ونصفا ، لم يخطىء يوما واحداويجعلها ثلاثة أو أربعة .

من البار فى منتصف الليل يعود الى حجرة السطح التى يعيش فيها مع زوجته وعياله الثمانية ، فيستلقى على المرتبة الموضوعة على الحصيرة وينام كالقتيل بعد ان يلقى فى ناحية بالفوطة الحمراء التى تحوى بقايا المزات من لقم العيش وشرائح الطماطم ، والفاصوليا المسلوقة التى يلفها دائما فى ورقة ثقيلة لكى لاتنقع على الفوطة .

كالقتيل ينام بعد يوم العمل المرهق ، وفى نومه قلما يرى احلاما سعيدة ، بل تطارده الكوابيس فى كثير من الاحيان . كالمرة التى رأى نفسه فيها فى صالة فسيحة مضاءة بأنوار لايعرف من أين تأتى ، ثم سمع طرقتين رخاميتين لهما فى الصالة صدى مرتفع رهيب فصرخ قائلا :

ـ واحد براندى !

واكتشف انه لم يصرخ فى عقله وانما بحنجرته ، وانه قد هب من نومه مذعورا واستوى جالسا على المرتبة ، وان صرخته كانت عالية

الى درجة إنها ايقظت ولده محروس فجلس فى ركن الحجرة بين اخوته النائمين يدعك عينيه ويقول :

ـ عاوز حاجة يابابا ؟

فأجابه وهو يتنهد :

ـ لايابنى ، مفيش حاجة .

ـ انا سامعك بتزعق .

ـ كابوس يابنى .

ـ دنت بتقول واحد براندى .

ـ مالكش دعوة ب . نام !

وفى الصباح تبين له ان زوجته قد سمعت صرخته بدورها ، ولذلك اصبحت تسأله :

ـ كنت بتزعق تقول ايه ؟

فقص عليها الحلم قائلا اللهم اجعله خير ، ولزيادة الشرح حكى لها عن ذلك الافندى زبون البار ، وعن الطرقتين اياهما ، مختتما كلامه بقوله ربنا يتوب علينا ، ومتلقيا من زوجته الهزيلة مثله تصعيبة صغيرة وهى تقول : آمين يارب .

وكان ولده محروس موجودا أثناء هذا الكلام فقال :

ـ موش تاخدنى معاك مرة يابابا ؟ عمرك ماخدتنى الشغل ابدا زى أخويا علوى .

فتفكر فى الامر حينا ثم قرر ان يأخذه معه ذلك اليوم ، وهناك يغذيه بصحون المزة ورغيف يشتريه له بقرش تعريفة ، وهى سياسة كان كثيرا مايتبعها مع اخويه الكبيرين ، من ناحية انهما يعتبرانها نوعا من الفسحة ، ومن ناحية اخرى لانه كان يوفر غذاءهما ويترك لسائر

اخوتهما فرصة مزيد من الشبع بما فى البيت من طعام .

وتصادف ان كان ذلك الافندى فى البار ذلك اليوم ، فأجلس الولد على مائدة غير بعيدة عنه قائلا له :

ـ ابنى يابيه .. ماتعرفلوش شغلة ؟

فلم يزد عن ان قلب راحة يده التى لاتمسك الكأس تعبيرا عن عجزه الشامل فى هذا الصدد ، وأخرج نصف فرنك قال له ان يعطيه للولد لكى يشترى به شيئا ، فلما عاد الولد الى البيت راح يحكى لامه عن العجائب التى شهدها فى البار ، ومنها ذلك الافندى الذى أعطاه القرشين ، والذى هو ـ بالرغم من ذلك ـ افندى نكته جدا ، لأنه بدلا من ان ينادى على الطلب يخبط بالكوب على الرخامة خبطتين فاذا بأبيه ـ كما حدث فى الحلم ـ يصيح .قائلا واحد براندى

قال عباس : ربنا يتوب علينا .

وقالت زوجته : آمين يارب .

ولكن الولد ـ فى البيت خمس سنوات ـ لم يكن يرى فى الامر الا ناحيته الفكاهية فخبط على الطبلية خبطتين ثم صاح مقلدا صوت ابيه : واحد براندى ! ثم كررها مرتين وهو يضحك ، وكاد يكررها مرة رابعة وخامسة لولا ان شخط فيه عباس وصوب الى وجهه ضربة غاضبة طاشت بسبب ارتداد الولد الى الوراء .

فلما كان اليوم التالى ، بينما جلس عباس يعد القروش الفكة التى فى جيبه ليحسب ماظفر به فى يومه من البقشيش سمع الطرقتين المنتظمتين من الكوب على الرخام فصاح بلا شعور :

ـ واحد براندى !

ثم خيل اليه ان هناك شيئا غير مضبوط ، وبعملية ذهنية صغيرة

تأكد له ان هناك شيئا غير مضبوط . وانه لم يكن من الممكن ان يسمع هاتين الطرقتين لسبب بسيط جدا وهو انه ليس فى البار وانما فى البيت !

عملية ذهنية صغيرة اخرى، فأحس بالدماء فى عروقه ، وأسرع الى المكان الذى صدر منه الصوت ، وهو ذلك الكشك الخشبى الصغير الذى تستعمله زوجته فى الطهى وفى الغسيل فى ركن من السطح .

وهناك رأى الولد محروس يمسك كوبا زجاجيا ويهم بأن يدق به ـ من جديد ـ على قطعة مكسورة من الرخام !

فلولا اسراع زوجته على صراخ الولد لمات فى يده من شدة الضرب .

* * *

انتهز عباس فرصة ركود مؤقت فى الطلبات وجلس الى مائدة بعيدة يسحب الدخان من سيجارة أعطاها له أحد الزبائن ، وفى نفسه شعور غامض بأن هناك شيئا ناقصا . أيكون أحد الزبائن قد طلب منه شيئا فوعده به ونسى ان يحمله اليه ؟

كلا ، فالزبائن لايتحملون بهذا النوع من الصبر ، وعندهم الف طريقة لتذكيره بما نسى . وأما الافندى اياه حيث يجلس وراء الحاجز الزجاجى فليس يلزمه لاستدعائه أكثر من خبطتين على رخامة المائدة .

ان هذا الافندى هو السبب فى ذلك الشعور الغامض الذى يساوره ، لأنه قد مضت عليه مدة أطول من المعتاد دون ان يطلب ملء كأسه الفارغة . فهو يفتقد الطرقتين الرخاميتين اللتين اعتاد ان يسمعهما عند وجود صاحبهما مرة كل عشر دقائق بالضبط .

ـ تك تك .

دوت الطرقتان فجأة فصاح من فوره بصوت مغلق :

ـ واحد براندى !

ثم تنحنح وسعل وبصق وكرر النداء بصوت سليم ، وحمل الكأس على الصينية الصغيرة وقصد بها الى ماوراء الحاجز الزجاجى .

ورفع الافندى نحوه عينا فيها دهشة من حضوره ، وانتقلت الدهشة الى عباس عندما نظر الى كوب الافندى فوجدها نصف ممتلئة بالسائل الاصفر .

ـ حضرتك موش خبطت ؟

ـ أبدا .

ـ متهيأ لى سمعت خبطتين .

ـ لا أبدا .. وعلى كل حال حط الكأس هنا .

فوضعها عباس بين صحنى الطماطم والفاصوليا ، ورفع يده ليلوح بها بجانب رأسه الصغيره قائلا :

ـ معلهش . الزبون يشرب وانا نسكر !

وعاد الى مائدته البعيدة حيث كان قد ترك نصف سيجارته المشتعلة على حافة الرخامة ، فجلس ليدخنها فى صمت . ولايدرى لماذا تذكر ولده محروس والفصل الذى صنعه بالامس ، والضرب الشديد الذى ناله منه ، فشعر بالرثاء له وقرر ان يغدق عليه اليوم من العطف مايعوضه عن قسوة الامس . وشعر ان السيجارة قد صغرت الى درجة انها بدأت تحرق اصابعه ، فرفعها الى شفتيه ليسحب منها نفسا اخيرا ساخنا ، ثم القى بها على الارض وفعصها فى اللحظة

التى سمع فيها الطرقتين الرخاميتين وصاح بلا شعور :
ـ واحد براندى .

ان الافندى ليس طبيعيا هذا اليوم ، فهو اما ان يستغرق فى الكأس نصف ساعة وأما ان يجرعها فى دقيقتين ، ولكن هذا ليس شأنه طبعا ، وللسكارى نزوات تحار العقول فى فهمها .

بالكأس الجديدة قصد الى ماوراء الحاجز الزجاجى ، حيث فوجىء بأن الافندى يجرع ثمالة الكأس الاولى ، وبالقرب منه ـ بين صحنى الطماطم والفاصوليا ـ كوب آخر يحتوى على الكأس التى حملها اليه ـ خطأ ـ منذ دقائق .

ـ حضرتك خبطت ؟
ـ أبدا ياعباس ! ايه الحكاية ؟
ـ موش عارف مالك يابيه . .

ولوح بيده بجانب رأسه وهم بأن يقول ان الزبون يشرب وهو يسكر ، ولكنه أحس ان ذلك يكون تكرارا لايخلو من الاملال ، فانصرف ساكتا .

* * *

كما قرر فى نفسه وهو جالس فى البار ، ماكاد يرى محروس ظهر ذلك اليوم حتى طبطب على ظهره وانحنى فقبله على شعره ، بل وأخرج من جيبه قرشا أعطاه له وهو يوصيه بألا يخبر احدا من أخوته . ولذلك جلس بعد ساعة راضيا عن نفسه يشرب كوبا من الشاى الاسود ، ويقضى الدقائق الباقية على نزوله الى البار لفترة المساء ، فليته يجد الافندى اياه فى البار لكى يحظى بالثلاثة قروش ونصف قرش ، وبذلك يمكنه ان يعطى أخاه محروس مثلما اعطاه

والا فانهم اذا عرفوا ـ وسيعرفون حتما ـ فسوف يجتمعون عليه و . . .
ـ تك تك !
ـ واحد براند . .

وقطع الكلمة عندما أدرك انه فى البيت لافى البار ، وفى عروقه شعر بدماء فائرة تغلى ، اذ تبين له مدى سفاهة وعقوق ذلك الولد ، الذى يكرر هذا الفصل الوضيع بعد ساعة واحدة من أخذه للقرش .

هب عباس كالمجنون قاصدا الى الكشك الخشبى بالسطح . متخيلا صورة محروس وهو يمسك الكوب بجانب قطعة الرخام المكسورة ، ولكنه لم يجد هناك الا زوجته وهى جالسة على قرافيصها تغسل قطعة من الثياب .

ـ فين الواد محروس ؟

فرفعت المرأة اليه عينا مدهوشة ، وقالت انه ليس هنا وانما يلعب مع اخوته فى الحارة .

ـ كلهم تحت ؟
ـ كلهم ؟
ـ انتى خبطتى بكباية ؟
ـ انا باغسل والا باخبط بكبايات ؟
ـ لكن انا سمعت خبطتين بكباية . .
ـ لا فيه كباية ولا فيه خبطتين . .

فخرج من الكشك مطرق الرأس ، مقوس الظهر ، يبدو أقل من حقيقته طولا ، كأن الخيط الذى يحركه من أعلى قد بدأ يقصر ويهبط به ويتراخى .

وفى البار صاح أكثر من مرة واحد براندى . على اثر طرقتين رخاميتين لم يسمعهما احد غيره . وفى اليوم التالى كاد يذوب من الخجل وهو يصبح بين ركاب الترام : واحد براندى ! ثم أحس انه لامناسبة للخجل ما دام يؤدى واجبه كجرسون أمين مطيع ، ومن حسن حظه ان الناس فى الوسط الجديد الذى وجد نفسه يعيش فيه فى الايام الاخيرة ـ بعيدا عن زوجته وأولاده الذين يذكرهم فى بعض الاحيان كصورة بعيدة عن الماضى ـ لايجدون بدورهم اية غرابة عندما يسمعونه وهو يصبح قائلا : واحد براندى !

ارنب فى السماء !

كنا جالسين فى الحديقة الخلفية ـ ولدى وانا ـ فقلت له مقترحا :

ـ ماتروح تقعد فى حته تانية ؟

فقد نظرت الى الحديقة الواسعة ، ونظرت الى نفسى ـ انا الرجل لكبير ـ فرأيتنى جالسا وحدى مع ذلك الولد الصغير فى شكل احتماع خاص ، وبدا لى ان منظرنا مضحك نوعا ، حتى بالرغم من ان احدا لايرانا .

قال لى فى ايجاز :

ـ اصلى عاوز اقعد معاك .

فأدركت ان الولد محتاج نفسيا الى الجلوس معى ، لابصفتى والده فحسب ، وانما بصفتى رجلا راجح العقل ـ بالنسبة له على الاقل ـ يمكنه ان يقدم له من الرأى السديد ماينير بصيرته ويفيده فى مستقبل الحياة ، فمن انا حتى ابخل عليه بهذه الفوائد الكبيرة ؟

قلت له :

ـ خلاص ، خليك قاعد . .

فابتسم فى خجل لالزوم له ، وأخذ يحك بنطلونه بظفره ليزيل بقعة وهمية . وخطر لى انا خاطر مضحك فأخرجت النوتة من جيبى لكى أدونه فيها ، وبينما أنا عاكف على ذلك أتانى صوته يقول :

ـ بص يابابا . . كلب طاير !

وهى بالطبع ملحوظة كاذبة ، لاستحالة وجود كلاب طائرة اصلا ، على الاقل فى ذلك الارتفاع الذى يشير اليه بأصبعه . ولكننى نظرت الى حيث اشار ـ مجاملة له ـ فلم ار اى كلب بالطبع ، ولكننى رأيت سحابة كبيرة بيضاء تسبح فى زرقة السماء الصافية .

ـ شفته يابابا ؟

وهذا عيب العيال . . انهم ينظرون الى السحابة بلا مناسبة ويشبهونها بالاشياء غير الصحيحة .

قلت له :

ـ ده موش كلب يامغفل ده ارنب . . خليك دقيق .

فتفحص الشكل الطائر فوقه ثم ضحك وقال :

ـ آه صحيح !

وهى ميزة فى ذلك الولد ، انه يقبل النقد بصدر رحب ويعرف متى يعدل عن آرائه .

سألنى :

ـ نيجى نأكله ؟

فأدركت انى يجب ان أرد النوتة الى جيبى ، ورددتها ثم نظرت الى الارنب المقترح اكله ، واصارحك القول بأن الفكرة اعجبتنى .

قلت له :

ـ ياريت يابنى . . ده كان يقضينا سنة بحالها . .

وكان تفكيرى متجها الى الناحية الاقتصادية ، ولكنه كان يفكر فى شىء آخر ، اذ قال :

ـ وندى منه حته لعلاء .

علاء هذا هو اخوه الصغير الذى يكرهه كره العمى وفقا للمبادىء الفرويدية ، ولذلك يريد ان يضحك علىّ وعلى نفسه بهذه النفحة من الكرم نحو الطفل ، علما بأن اعطاء المذكور مجرد حتة من هذا الارنب ذى الحجم الخرافى يعتبر اقرب الى البخل منه الى الكرم ، خصوصا انه لن يأكلها لانه مازال يرضع .

وسكت الولد حينا ، حتى ظننت انه نسى الامر واننى استطيع مواصلة افكارى المضحكة ، ولكنه مالبث ان قال متسائلا :

ـ بس ندبحه بايه ؟

سؤال سخيف كما ترى ، ولكن ماذا اصنع بولد محتاج الى نفسيا ؟

ـ الارانب كلها بتدبح بايه ؟

ـ بالسكينة يعنى ؟

ـ طبعا .

فسكت مفحما ، وظننت من جديد ان الأمر قد انتهى ، ولكنه عاد بعد لحظات من التفكير يقول :

ـ بس نطلع له ازاى !

فخطر لى ان أشتمه ولكنى احجمت ، ورحت افكر فى أداة نتوصل بها الى ذلك الارنب الشاهق ، فلم اجد بالطبع احسن من الطيارة ، الأمر الذى أثار عنده مشكلة جديدة .

سألنى :
ـ ومين يسوقها ؟
ـ الطيارة ؟
ـ آه . .
ـ اى حد . .
ـ طب ماتسوقها انت ؟
ـ زى بعضه ، أسوقها .
فقال بعد لحظة من الصمت المستريب :
ـ انت تعرف تسوق طيارة ؟
ـ لا . .
ـ امال عاوز تسوقها ليه ؟
ـ انا موش عاوز اسوقها . انت اللى عاوزنى اسوقها . .
ـ انا باحسبك تعرف تسوق . .
ـ لا . .
ـ امال مين ح يسوقها ؟
ـ نشوف لها سواق هنا ولاهنا .
وبانتهاء مشكلة الطائرة وسائقها ظننت ـ لثالث مرة ـ ان حاجة الولد النفسية الى قد انهت ، ولكننى كنت مخطئا .

ـ بس الارنب ده (سألنى) نحطه فين ؟
وهو كما ترى سؤال يثير صعوبة كبيرة فى الاجابة عليه من الناحية التربوية ، ولذلك اكتفيت بأن أقول :
ـ شوف الارانب بتتحط فين . .

قال مستفسرا :
ـ فى الحلة يعنى ؟
ـ طبعا . .
ـ واحنا عندنا حلة تساعه ؟
ـ نعمل له حلة على أده .
ـ نعملها فين ؟
ـ عند بتاع الحلل . .
ـ ونشيل الحلة فين ؟
ـ فى التلاجة . .
ـ واذا مادخلتش فيها ؟
ـ نفصل لها تلاجة على ادها . . ومانسألنيش نفصلها فين لانك عارف .
ـ عند بتاع التلاجات . . ؟
ـ ايوه . .
فسكت ليتخيل الحجم المناسب لمثل تلك الثلاجة وأظنه انه اعجبه ، ثم قال وسفالة الاوغاد فى عينيه :
ـ ونسكها بالمفتاح احسن علاء يأكل الارنب !
وهكذا اكتشفت اننا نسير فى دائرة مفرغة ، وان الولد ليس فى حاجة نفسية الى انا ، وانما الى مايمكن ان اساهم به فى اغتياب اخيه الرضيع .
قلت لأريحه :
ـ تيجيش بدل ماندبح الارنب . . ندبح علاء . ؟

فنظر الى فاحصا ليعرف مدى صدق نيتى فى الامر ، ثم ابتسم فى مزيج من الخجل والخبث وقال :ـ

ـ حد يابابا يدبح اخوه ؟ !

فلم يعد امامى الا ان اقول بالحزم الأبوى المناسب .

ـ طب قوم من هنا أحسن اكسر دماغك .

اذ انه ـ من بين كافة المذاهب التربوية ـ لايوجد احسن من المذهب التقليدى القديم ، ام ان لك رأيا آخر ؟

كيف يطيرون ؟

اذا رأيتنى واقفا فى شرفة المودعين بالمطار واستدللت من ذلك على اننى اودع مسافرا ، فهذا دليل على شىء واحد هو السخافة التامة لتلك العملية الذهنية المسماة بالاستدلال ـ على الاقل ـ عند محاولة تطبيقها على تصرفاتى الخاصة . فما اكثر المرات التى تواجدت فيها هناك لالسبب سوى ان استمتع بالفرجة على الطائرات ، وذلك فى محاولة منى ـ فاشلة طبعا ـ فى ان اكيف نفسى مع عصر النفاثات .

فى دهشة صبيانية بالغة انظر اليها ـ النفاثات ـ وقد انتشرت على ارض المطار اشبه بدناصير زمان المفزعة ، واقول لنفسى انه من المستحيل على تلك الاجسام الضخمة الرهيبة ان تطير . ويأتى اوتوبيس يحمل المسافرين نحو واحدة منها ، واكثر من مائة انسان ينزلون منه ويشرعون فى صعود السلم . واحدا بعد واحد يغيبون فى جوف ذلك الوحش الجائم هناك .

لن تطير ـ اقول لنفسى ـ لن تطير ! اذ كنت استبعد ان تطير وهى

خالية فكيف اصدق انها سوف تطير بكل هؤلاء الناس وما معهم من حقائب وصناديق وسلال دعك من الاشياء المهربة ؟

ويقفل الباب على الجميع ويسحب السلم الذى كان مؤديا اليها ، وتبتعد السيارة ذات الفنطاس التى كانت تزود الطائرة بالوقود . ومن الوحش الجاثم هناك ينبعث ازيز منذر ، ثم لايبرح ان يتحول الى هدير ، وتشرع تلك الكتلة الرهيبة فى الزحف على ارض المطار . ببطء كأنها تتفسح حتى تصل الى بداية الممر الذى تقصد اليه ثم تستدير وتغير وجهتها . وعلى صوت المدير الذى ضرب فى ستين تبدأ فى الاندفاع على ارض الممر ، لحظة بعد لحظة تزداد سرعتها ومازلت اقول لنفسى انها لن تطير . فكم يخفق قلبى ـ حط ايدك على صدرى ـ عندما افاجأ بها وقد وثبت فى الهواء وطارت ، وفى السماء الفسيحة غاصت مخلفة وراءها ذلك الشريط الطويل من الدخان . احساس بالنشوة العارمة يعترينى ، نشوة الافتتان بالعبقرية البشرية التى نجحت فى خلق هذه المعجزة الطائرة . واحساس آخر اليم بضآلتى الشخصية ، مناسب لرجل ليس عنده ادنى فكرة عن الطريقة التى تطير بها النفاثات ، ولا عن الظروف التى ادت الى اختراعها ، ولا ـ بالاختصار ـ عن اى شىء عنها .

ويزداد ذلك الاحساس الاليم حين اتذكر ان الذى يقود تلك الطائرة رجل مثلى ، فى روحه ـ وهى روح نفاثة من نوع غريب عنى ـ من الثقة والشجاعة مايجعله يأتمن نفسه على قيادة ذلك الوحش الخرافى الرهيب . فلو انهم وكلوا الى قيادة طائرة من هذا النوع ، فأنا اعرف جيدا ماسوف يحدث . سوف احرك بها ـ بعد ان آمرهم

باغلاق الباب وربط الاحزمة وما الى ذلك ـ الى بداية الممر ثم استدير واتهيأ للاندفاع ، ولكننى بالطبع لااندفع ابدا ، انما اسير على ارض الممر بتؤدة وانا اقلب وجوه الرأى ، محاولا ان اقنع نفسى بأن اللعينة سوف تطير . على مهلى أسير حتى أصل الى نهاية الممر فأحيد الى ممر آخر وأنا أواصل التفكير وفى نوبة مفاجئة من الحزم اندفع بأقصى سرعتى وقد قررت ان اطير ، ثم لا ابرح وقد وصلت الى اخر الممر ـ انا عارف نفسى ـ ان اتساءل بقولى : طب موش يمكن ما تطيرش ؟ فأهدىء السرعة واعاود التمشية فى ممر جديد ، مليئا بالطبع بالحسرة بسبب انهم لا يصنعون الممرات بالطول الكافى لأن اقطع الرحلة كلها على الارض . وهكذا يمر الوقت وانا اتفسح بالمسافرين على ارض المطار ، تلك المهزلة التى لاتنتهى بالطبع الا عندما اتلقى فى اللاسلكى اشاره تقول لى انى مرفود .

لكل تلك الاسباب ـ لكى اتاقلم مع عصر النفاثات ـ ترانى بين حين وآخر فى شرفة المطار . فلا يغرنك منظرى وتحسب انى قد اتيت لكى اودع احدا ، حتى ولو رأيتنى الوح بيدى للطائرة المبتعدة .

محنة الشغالة العصرية

من احاديث ربات البيوت مع بعضهن البعض فهمت ان واحدة منهن تريد ان تشق هدومها ، وان روح الثانية قد اصبحت فى انفها ، وان الثالثة قد اخلدت الى اليأس ووضعت اصبعها ـ على حد قولها ـ فى الشق ، وكل ذلك بسبب ما يلاقينه من العذاب فى علاقتهن بالشغالة المصرية المعاصرة .

هن جميعا يعترفن لها بالحق فى تناول الطعام مثلهن ـ هى موش بنى آدم يا اختى ؟ انما تبدأ المشكلة فى الاستبانة عندما تنظر الى المسألة من ناحية الكم والكيف ، هى مثلا ـ الشغالة المصرية المعاصرة ـ قد نسيت تماما انه من الممكن للانسان ان يأكل العيش البايت بدلا من العيش الصابح ، وأن رغيفا بايتا مبللا بالماء القراح يمكن أن يؤلف وجبة كاملة للنفس القانعه ، لاسيما اذا غمستها ـ النفس المذكورة ـ بشىء من الملح والفلفل . ولكن هذه القناعة شىء لم تعد تعرفه الشغالة المصرية ، مصرة على استخدام الرغيف الصابح غير المبلل ،

ورافضة للملح والفلفل كمادة للغموس ، ومصممة على ان يكون غموسها فى الافطار هو الفول المدمس مثل سائر افراد الاسرة ، بشرط ان تضيف اليه ملعقة زيت وتعصر عليه ليمونة كاملة .

ـ الرغيف يا اختى ماباخدش فى ايدها دقيقة .. تخلصه وتندار على غيره .. لو يسيبوها على طابونة تمسحها مسح !

ـ ودى تيجى ايه جنب البنت اللى عندى ..

ـ مالها يااختى ؟

ـ ال ايه صحن الفول المدمس موش مكفيها .. وعايزة جبنة بيضة ..

ـ ياندامتى !

ـ ومقلية فى السمن كمان ..

ـ بتتكلمى جد ؟

ـ وحياة غلاوتك عندى يا تانت

ـ قطيعة تقطع دى بت .

وفى الغداء تريد ان تأكل نفس الاصناف التى يأكلونها من خضراوات وارز او مكرونة ، بل وتطالب بنصيبها من اللحم معلنة عن امتعاضها من تلك القطعة الوحيدة التى يسمحون لها بها . فاذا كان الطعام ملوخية بالفراخ فهى بالنسبة للملوخية تريد معها شيئا من الدمعة ، وبالنسبة للفراخ ترفض الاقتصار على اكل الجوانح مصرة على ان تنال من الفرخة الاصلية ديوسا كاملا على الاقل ، وبشرط ان يكون فيه الى جانب العظم والجلد لحم ايضا . فإذا انتهت من الغداء فلابد ان تشرب الشاى ، ومن المطبخ يترامى الى اذن السيدة المفروسة ـ ذات الصوت المزعج ـ صوت الملعقة وهى

تخبط فى جدران الكوب لتذيب فيه ربع كيلو على الاقل من سكر التموين

ـ وكله كوم وقضيان الحاجة م السوق كوم

اذ تنزل مقصوفة الرقبة لشراء حاجة البيت فلا تعود قبل ساعة او ساعتين مع ان الخضرى لايبعد عن البيت اكثر من محطة اوتوبيس والجزار لايبعد اكثر من محطتين . فهى قد كادت تنسى انه فى امكان الانسان ان يمد فى سيره ، ونسيت نسيانا تاما ان فى امكانه ان يجرى .

أما اذا ذهبت الى المكوجى لاستعجال المكوة ، فإن مجرد رجوعها من عنده ـ بصرف النظر عن المدة التى قضتها هناك ـ يعد ضربا من المعجزات .

ـ تصورى يا تانت ، اول مرة قريت رواية كاملة لأجاثا كريستى وهى لسه بتجيب المكوة !

ـ قطيعة تقطع الشغالين وسنينهم

وكل ذلك يهون بجانب ما تعانيه الشغالة العصرية من التطلعات الطبقية الحادة ، لا الكستور يملأ عينيها فى الشتاء ، ولا الدمور فى الصيف ، معتقدة انه من طبائع الاشياء ان تلبس نفس الاقمشة التى تلبسها سيدتها حتى ولو تصادف ان كانت من شارع الشوارب .

وفستان قديم من فساتين سيدتها اوقع فى نفسها من فستان جديد تفصله لها السيدة من الدبلان المشجر . ويا حبذا لو كان فستانا من نوع المينى جوب لكى يكشف عن ركبتها ، والا يعنى ما لناش نفس نهوى ركبنا زى كل الستات ؟

فإذا أخذت فستان سيدتها فهى تجرى عليه من التعديلات مايجعليه محزقا آخر تحزيق ، ليبرز كل ما يمكن ابرازه من معالم الصدر

والارداف ، وبه تمشى فى الصالة متقصعة تستعرض ماتظن انه مفاتنها لاسيما اذا كان البك جالسا يشرب القهوة . وبإضافة ذلك الى ماسلف ذكره من غيابها فى السوق وعند المكوجى تتضح لنا تلك الحقيقة المرة من ان الشغالة العصرية قد بدأت فيما يبدو تصاب الى جانب كل ماهى مصابة به - بالغريزة الجنسية

- خلى بالك من جوزك كويس ، الرجالة دى عنيها فارغة
- ماتخافيش ياتنت ، انا جوزى موش بتاع كده
- خالتك احسان كانت دايما تقول كده على جوزها ، لغاية ما صحيت يوم الفجرية مالقيتوش جنبها

وقد كان يمكننا نتحمل منها - الشغالة العصرية - هذه المزعجات لو انها تؤدى عملها بالامانة المناسبة ، لكن هو يا اختى بقى فيه امانة ؟ اذ تمسك المقشة للكنس فتحسس بها على الارض تحسيسا ، وبالعافية ترغمها سيدتها على ان تمد يدها تحت الكنبة ، واذا نفضت الشيش فهى تطبطب عليه اكثر منه تنفيض ، مع تجاهل تام لحقيقة ان الزجاج لم يلمع منذ اربع وعشرين ساعة كاملة . وهذا الاهمال طبع يلازمها فى كافة الاعمال المنوطة بها ، فى مسح البلاط ودعك الباركية وتنفيض السجاجيد، وفى غسل الغسيل ونشره وطيه وتطبيقه . وفى اعداد السفرة ثم رفعها ، ثم غسل الحلل والصحون وتشطيب المطبخ ، مع ادعائها بأنها لا تستطيع أثناء هذه الاعمال البسيطة ان تأخذ بالها من الولد حتى تنتهى سيدتها من حل الكلمات المتقاطعة .

قطيعة - تقول تانت - تقطع الشاغلين وسنينهم !

أفكار .. للمصيف

اذا وصلت اليك هذه الكلمات وأنت فى الاسكندرية .. فأرجو أن تجيبنى الى هذا المطلب المتواضع البسيط : ان تصيف بالنيابة عنى .

ذلك الجسم الجميل الذى تراه متمددا على الرمال بالقرب منك ، اتأمله بعينى وأسرح فيه بخيالى ، فاذا كنت أعزب ، فخير لك ان تستبعد من فورك تلك الفكرة المجنونة . العبيط وحده هو الذى يرى جسما جميلا فيتزوج صاحبته ، وعشرة أعوام بخمسة عيال فتحاصرك الاعباء وترهقك الديون وتقبع مثلى فى حر القاهرة لكى تشتغل بدلا من ان تتفسح .

فاذا كنت بالمايوه فانزل الى البحر وخذ لك غطسا ، والى البرميل الاحمر البعيد فلتسبح ان كنت جدعا مثلى . وهناك فلتتعلق به لاهثا مبهورا بالزرقة الفسيحة حولك ، وبشماسى البلاج التى تبدو من ذلك البعد اشبه بزهور صغيرة ذات الف لون . « على الاقل هذا ما اراه انا بسبب اضطرارى الى ان اخلع نظارتى قبل ان أنزل الى

البحر ، فيمكنك ان تستخدم الخيال فى استكشاف تلك الزهور »
والآن وقد جمعنا ، فما رأيك فى ان تصحبنى فى سيارتك « التى ارجو الاتكون فورد ٥١ نبيتى كى تضمن الوصول بسلام » الى ابوقير حيث نتغدى بسمكة مشوية وصحن من الجمبرى باليخنى . . ولا بأس بصحن الكابوريا بشرط ان تكون زجاجة البيرة ساقعة . اجمل غدوة سمك هناك على البحر فى ذلك المطعم الخشن على الشاطىء . . ثم ارفع كوب البيرة مع الايماء بالرأس فى ادب ، تحية للسيدة فردوس حسن ، التى لا اذكر انى ذهبت الى ذلك الكازينو الا ووجدتها قد سبقتنى هناك .

والآن فلنذهب الى البيت لننام ساعتين ، فبغير هاتين الساعتين لايمكن ان تنجح فى التصييف وانت انا ، فاذا ماصحوت فاجلس فى البلكونة لنشرب القهوة ، ناظرا بالشماتة المناسبة الى افواج أولئك التعساء الذين لم يناموا ساعتين ، عائدين من البلاج وقد تخلخلت ركبهم من شدة التعب تحت احمال الشماسى والكراسى والترامس والاوعية الخالية . وأرجوك ان تحضر من الثلاجة زجاجة كازوزة ساقعة ، فيبدو ان ذلك اليخنى كان حاميا بعض الشىء .

هل انتهيت من ارتداء ثيابك ؟ اذن فهيا بنا الى الكورنيش لنتمشى قليلا . حاذر ان تصيب بنطلونك تلك الشظايا المتطايرة من حول الذرة المشوى ، فبنطلونك اليوم كما نلاحظ هو بنطلونى . واكون شاكرا لو انك امتنعت عن شراء ذلك الكوز الذى تفكر فيه ، فأسنانك ايضا فى أسنانى . وتمهل قليلا وراء هذا البنطلون الهيلانكا ، غاضا من بصرك الى حيث يجب فى مثل هذه الظروف ان

يغض لحظة من التأمل ثم تنحنح فى الوقار المناسب واسرع لكى تسبق السيدة ، ملتفتا الى الوراء لكى تكتمل لك الصورة من الناحية الامامية ، واغلب الظن انك سوف تندم ـ طالما حدث لى ذلك ـ على انك لم تكتف بخلفيات الامور .

والآن تمهل وقف لحظة هنا ، انظر بعينى الى ذلك القرص الكبير الاحمر للشمس الغاربة عند الافق ، تلك القوطاية الهائلة الحمراء التى توشك ان تغوص فى الماء الرمادى والتى ارجو ان يكون عندك بقية من الشاعرية التى ضاعت منى لكى تتمكن من ان تعطى المنظر حقه من الافتتان . فلقد مرت على أعوام طويلة وانا لا اخرج من ذلك المنظر بشىء سوى حال من الملل الرهيب ، وما يشبه الاشمئزاز الفلسفى من الموقف الفلكى العام .

والآن ومن فورك الى البلد ، ولا تقل انك ستجلس فى التريانو . لقد فقد هذا المكان متعته بالنسبة الى منذ أن نزعوا الترام من محطة الرمل ، فصار الانسان يجلس ليتفرج على السيارات العابرة بالمصطافين بدلا من ان يتفرج ـ كأيام زمان ـ على أهل الاسكندرية فى رحلاتهم اليومية اللطيفة بين الانفوشى ومحرم بك مرورا بمحطة الرمل .

اذا اردت ان تجلس فى اتينيوس فلا مانع ، بشرط ان تجلس فى الخارج على الرصيف ، فأنا أسمع فى الداخل صوت موسيقى ورقص ، اذا جاز لنا ان نتحدث عن الموسيقى والرقص بعد ان دهس التانجو النشوان تحت الاقدام المجنونة للجيرك والسيكولوجى أو بدلا من اتينيوس هيا بنا الى قهوة كالينيا على مسيرة خطوات ،

رجاء ان تجد مقعدا فى الصف الامامى المطل على محطة الاوتوبيس . فبلمسة السادزم التى لايمكن ان تخلو منها نفس انسان سوف تستمتع ايما استمتاع ـ حيث تجلس مسترخيا على المقعد ـ بمنظر المئات الذين يقفون على المحطة فى انتظار اوتوبيس لا يأتى ، أو يأتى ولكنه لايقف ابدا . فاذا وقف وهجم الناس عليه فمن الذى يكره ان يأخذ فكرة مصغرة عن يوم الحشر ؟ ولعلك تتساءل مثلى عن مصير هذا المينى جوب الذى ينحشر بين الاخرين فى زحام الاوتوبيس ، ترى هل تنزل به صاحبته فى ميامى دون ان يكون قد تحول من مينى الى ميكرو ؟ !

زهقت ؟ اذن فيها الى محطة الرمل من هذا الطريق الجانبى المتصاعد ، الذى يعينك على ارتقائه ذلك التيار الهوائى الوافد من الميناء الشرقية . وفى محطة الرمل فلتتمش بين الالاف الذين يتمشون أو الذين يقفون شللا وجماعات ضاحكين لأسباب لايهمك ان تعرفها . حسبك ان تشعر بأنهم سعداء ، ضحكاتهم تختلط بصفافير كمسارية الترام أبو دورين ونداء باعة الصحف على المصور وتأخيد رومس ، وصوت تطاير الغطيان عن زجاجات الكازوزة وعصير المانجة ، وصياح العيال حول اكشاك الجلاس وماكينات الفشار ، وضحكات هستيرية لثلاث عذارى عابرات احداهن تقول مش معقول ، وسط دوامة من كلاكسات السيارات وفراملها وصفارات عساكر المرور حول الجزيرة الصغيرة المكتظة الصاخبة .

ولتقف معى حائرا اى الشارعين تسلك الأن ، شارع سعد زغلول او شارع زوجته صفية ؟ كلا الشارعين يغرى الانسان بأن

يلقى بنفسه فى زحامه المرح ، ولنكتف اليوم بأحد الشارعين وهو الاخير ، فأنا احب رائحة المخلل التى لا أدرى لماذا أشمها دائما فى هذا الشارع . واذا تعبت أمكنك ان تجلس فى قهوة ايليت ، متفرجا من فوق كوب الكابوتشينو على الافواج الخارجة من دور السينما والذاهبة اليها ، هؤلاء بدورهم يبدو انهم سعداء وبشدة ، نساؤهم قد لبسن احسن ما فى الدولاب واقمن بينهن مباراة صامتة فى فن الباروكات .

شهر يفوت ونعود الى حيث كنا فى مقر اعمالنا ، فلماذا لايفوت علينا ـ هكذا يتساءلون ـ ونحن سعداء ؟ وأماكن كثيرة اخرى احب ان تذهب اليها بالنيابة عنى ، ولكننى لاعتبارات خاصة احب ان اذهب اليها بنفسى ، فليس من حقك بالطبع ان تحصل على كل اسرارى . فاذهب لحالك ودعنى لحالى ، والى اللقاء صباح الغد على البلاج لكى نعاود التمعن فى الظواهر المتمددة على رمال البحر الازرق الفتان .. باى باى ؟ ..

فن قيادة اللورى

قال التلميذ الفتى (وهو سائق لورى ناشىء) لأستاذه الشيخ :

ـ قول لى يا معلم .. ازاى أبقى سواق لورى قديم

فقال الاستاذ الشيخ (وهو سائق لورى قديم) لتلميذه الفتى :

ـ اقول لك ياواد .. بس الاول حضر التعميرة .

(الواد يحضر المذكورة ، والاستاذ الشيخ يسحب منها نفسين عميقين معطرين ثم يبدأ المحاضرة) .

ـ شوف ياسيدى .. السواقة بالنهار شىء ، وبالليل شىء تانى . كده والا لأ ؟

ـ كده يامعلم ..

ـ خلينا الاول فى النهار .. وافرض كده لقيت نفسك فى شارع الهرم .. ماعليك غير انك تدوس بنزين على الاخر وتمسك شمالك

ـ شمالى يامعلم ؟ لازم قصدك يمينى .

ـ لا ياكروديا .. اليمين ده معمول للافندية النواعمى .. لكن

الشمال للاسطوات العتره الى زينا .. آه .

ـ مسكت شمالى يامعلم ..

ـ اللورى بقى مافيهش سحب شديد .. وح تسمع وراك كلاكسات كتير عوزاك توسع لها .. ولاتسأل فيها . ح يكون مين اللى وراك يعنى ؟ حته واد هلفوت وارث قرشين ورايح يقابل له بت ؟ سيبه يرن . أوعى توسع له .. والا يعنى هو الشارع كان شارع أبوه ؟

ـ آدى الكلام والا بلاش .. ينصر دينك يامعلم ..

(سكته قصيرة لدخول نفسين جديدين فى صدر الاستاذ الشيخ)

ـ وصلت انت للشارع اللى ح تحود فيه .. انت لما تيجى تحود .. موش لازم تهدى شوية وتطلع دراعك ؟

ـ آه ..

ـ خلاص .. لاتهدى شوية ولاتطلع دراعك !

ـ امال أعمل ايه يامعلم ؟

ـ تروح مفرمل مرة واحدة وكاسر شمالك وملعون ابواللى وراك ! مالحقش يفرمل سيبه يخبط فيك .. هو موش عارف انك راجل بتأكل عيش وح تحود شمال ؟ والا فاكرك زيه رايح تقابل لك بت فى الاوبرج ؟

ـ كلام حكمة يامعلم .. تحيا الجدعان ..

ـ وانا وانت .. صلح التعميرة ياواد ..

(سكته لتصليح المذكورة ودخول نفسين جديدين فى رئتى الاستاذ الشيخ)

ـ سواقة الليل بقى عايزة استعدادات تانية .. خصوصا اذا كان المشوار طويل .. انت موش حطيت بنزين للعربية ؟

ـ آه . . .

ـ وزودت لها المية ؟

ـ آه . . .

ـ وكشفت على الزيت ؟

ـ آه . . .

ـ وبلعت حتة افيون ؟

ـ آه . . .

ـ خلاص .. اتكل على الله واطلع بيها ! الشارع قدامك فاضى ياواد .. شارع بتاعك انت .. شفت عربية جاية من بعيد تضرب فيها الكشافات تعمى للى سايقها عنيه .. هوح يكون مين يعنى .. موش واد وارث له قرشين وواخد بنت يفسحها فى الضلمة ؟

ـ هو فيه فى العربيات غير كده ؟

ـ خلاص ، اعمى له عينيه .. ! اكبس عليه ان شاءالله يقع فى الترعة ، والا هى الحكاية عافية ؟ فهمت ياواد ؟

ـ آيوه يامعلم .

ـ طب صلح التعميره كويس .

(سكتة جديدة لأنفاس جديدة فى اعماق الاستاذ الشيخ) .

ـ سقت لك بقى ساعتين ثلاثة ضرورى ح يكبس عليك النوم

ـ ياخبر .. واعمل ايه يامعلم ؟

ـ الله تنام ياواد ! . . قدامك الدركسيون حط دماغك عليه ونام . . خايف تقع وانت نايم . . اسند كوعك على الفتيس . . والا انت فاكر العدد دى معمولة للسواقة بس ؟ !

ـ والله كنت فاكر كده يامعلم . .

ـ لسه غشيم ! . . دنا مرة خدت لى تعسيلة بالشكل ده عند بنها صحيت لقيت نفسى بعد طنطا باتنين كيلو ! .

ـ لكن يامعلم انا خايف ما اشوفش اللى قدامى . .

ـ وتشوفه ليه ياواد . . انت مش منور الكشافات ؟

ـ آه . .

ـ خلاص . اللى قدامك هو اللى يشوفك ! . . هو مالوش عينين فى وشه ؟ والا عشان ماورث له قرشين واشترى عربية نموت احنا بقى من قلة النوم ؟

ـ خلاص يامعلم . . كبس على النوم انام . .

ـ المهم بقى وانت نايم ساعات تسمع صوت كده يفلقك زى ماتكون حاجة كده خبطت فى العربية . .

ـ ودى تبقى ايه يامعلم ؟

ـ ح تكون ايه ياواد . . عربية تانية !

ـ ياخبر ! حادثة يعنى ؟

ـ طب ومخصوص كده ليه ؟ آه حادثة فيها ايه ! هو الواحد معصوم ؟

ـ طب افرض حد مات فى العربية التانية !

ـ مايموت يا أخى . . انت وصى عليه ؟ حد قال له يطلع فى

الضلمة ومعاه بت كمان ؟

ـ ياسلام يامعلم . . دنت حتة سواق مافيش زيك !

ـ امال ياواد . . هو انا شوية ؟ دنا بقى لى عشرين سنة فى الصنعة دى . . دنا مدوب لغاية النهاردة اتناشر لورى . . وعشرين تاكسى . . وخمسة وتلاتين عربية ملاكى .

ـ الله . . انت سقت ملاكى كمان ؟

ـ لا يامغفل . دول دويتهم فى الحوادث ؟ هع هع هع هع . . صلح التعميرة ياواد ؟

بعد عمر طويل

إذا كان فقدك لهذا العزيز او ذاك ـ فى ذاته ـ داهية من الدواهى ، فان جلوسك لتلقى العزاء فيه ادهى بكثير وأمر . اذ يدخل عليك المعزى من دول اما حزينا فعلا ، وأما لاوى بوزه الى آخر ماتسمح به مقدرته على اصطناع الحزن ، ويجلس بجانبك قائلا فى لهجة تراجيدية عنيفة .

ـ ده مش معقول .. انا كنت قاعدة مع المرحوم مافيش اسبوعين وكان كويس خالص .. ايه اللى حصل ؟

فتروى له ماحصل ، كيف عاد المرحوم من الخارج وهو مخطوف اللون نوعا ، وقال لك انه موش عارف هدان كده ليه ، ثم طلب كوبا من الماء السائغ فشرب منه نحوا من نصفه واذا به ـ الكوب ـ يسقط من يده ، واذا برأسه يميل على كتفه كأنه اغفى ، واذا به قد فارق الحياة .

ـ لاحول الله يارب (يقول المعزى) لاحول الله .. إنا لله وانا اليه راجعون .. شد حيلك .. كلنا لها .

ويحني رأسه في اتعاظ حقيقي او مبالغ فيه او زائف اصلا ، نحوا من دقيقة قبل ان يأتي جديد من المعزين وقد لوى بوزه جهد طاقته لكي يقول لك :

ـ ده مش معقول انا كنت قاعد مع المرحوم مافيش اسبوعين وكان كويس خالص .. ايه اللي حصل ؟

فتروى له ماحصل ، كيف عاد المرحوم من الخارج وهو مخطوف اللون نوعا ، وقال لك موش عارف همدان كده ليه ، الخ . حتى اذا ماطرق المعزى برأسه في اتعاظه الحقيقي او المبالغ فيه او الزائف نهض لكي يفسح مكانه للمعزى الجديد الذي اقبل في لهفة يقول لك :

ـ ده مش معقول . انا كنت قاعد معاه مافيش اسبوع وكان كويس خالص .. ايه اللي حصل له ؟

فتتمنى ان ترفعه بالقلم ، أو بالبوكس ، او تخنقه وترسله الى المرحوم لكي يروى له القصة بنفسه . ولكنك لاتستطيع بالطبع ان تصنع اى شيء من ذلك ، ولاتجد أمامك سوى ان تقول :

ـ ده رجع من بره لونه مخطوف شويه .. ويقول انا موش عارف همدان كده ليه ..

وتروى له القصة كما رويتها للذين من قبله ، وكما سترويها للذين من بعده ، حتى تأتي عليك لحظات تشعر فيها انك انت شخصيا لونك مخطوف شوية وموش عارف همدان كده ليه ..

والغلطة ليست غلطة المعزين ، لأنهم بين رجل مهتم بالفقيد يريد ان يعرف كيف فقد ، وبين رجل مضطر الى هذا السؤال مخافة ان

يبدو لك غير مكترث بالأمر فتزعل منه وتحملها له مدى الحياة ..

فلذلك ـ اراحة لكل من الحزين والمحزين ـ اسوق هذا الاقتراح الذي مهما قلت فيه فلا يمكنك ان تنكر انه اقتراح عملي :

بمجرد التأكد من وفاة الفقيد ، وقبل ان يبدأ توافد المعزين ، يستحضر الحزين ميكروفونا ورجلا يجيد الكلام فيه (مذيعا اذا امكن) فيقص القصة بكل التفصيلات التي تهم المعزين ، ويجلسه بميكروفونه في ركن مظلم من أركان المنزل ، مكلفا اياه بأن يبدأ الكلام بمجرد اجتماع ثلاثة معزين في المنزل ، قائلا :

ـ سيداتي وسادتي .. انا لله وانا اليه راجعون .. لعله يهمكم ان تعرفوا ـ بما عهد فيكم من تعلق شديد بالفقيد ـ كيف ومتى ولماذا وقع ذلك الحادث الاليم .. فأما وقت الوفاة فهو الساعة الثانية والنصف وسبع دقائق بالضبط . واما سبب الوفاة فهو ـ حفظكم الله واطال بقاءكم ـ السكتة القلبية المفاجئة . وقد كان الفقيد في اتم صحة وعافية ، بدليل انكم كنتم معه جميعا منذ أسبوعين ، ورأيتم كيف كان في أحسن حال ، واليوم عاد من الخارج وهو مائل الى الشحوب نوعا ، فقال انه لايدري لماذا يشعر انه همدان ، وطلب كوبا من الماء شرب نصفه ، فإذا به يسقط من يده ، واذا برأسه يميل على كتفه ، واذا به قد فارق الحياة . رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته .

ويسكت المذيع ليشرب ـ هو ـ نصف كوب من الماء ، وينتظر دخول ثلاثة معزين جدد ، ثم يتنحنح ويعيد تلاوة القصة من جديد.

انها طريقة ـ لايمكن ان تنكر ـ ذات فائدة مؤكدة في اراحة الحزين من سرد القصة مائة مرة لمائة شخص مختلف ، كما اننا نستطيع ان

نضيف اليها عنصرا يريح المعزى من واجب متعب له هو ، ونعنى به واجب التفتيش فى ذاكرته عن محاسن الفقيد لترديدها على مسمع الحزين ، وتشغيل مخه - مخ المعزى - فى اختراع عدد من المحاسن الوهمية للمرحوم اذا تصادف عدم وجود محاسن حقيقية .

فما علينا لتحقيق هذا الغرض الا ان نكلف المذيع سالف الذكر بأن يقول عقب روايته لقصة الوفاة :

وقد كان الفقيد مثالا للاخلاق العالية ، من كرم يضرب به الامثال ، الى شجاعة خارقة ، الى تقوى وورع وصلاح تكاد تصل الى مرتبة الولاية ، الخ .. الخ ..

بهذه الطريقة نحقق الراحة للمعزى كما حققناها للحزين ، علما بأننا نستطيع ان نستخدمها فى تحقيق فوائد كثيرة مختلفة باختلاف أمزجة أصحاب الجنازة ، كأن يكونوا ميالين الى الفشر فيكلفوا المذيع بأن يقول :

- وقد بدىء منذ ساعات فى حصر تركة الفقيد ، ووصل الرقم حتى هذه اللحظة - الى مائة وستين الفا من الجنيهات .. ومانزال فى انتظار آخر المعلومات .

فاذا كان اهل الميت يخافون حسد الحاسدين او طمع الطامعين ، فما على المذيع الا ان يقول :

- وقد توفى الفقيد مرهقا بالديون التى تستغرق تركته وربما تزيد عنها ، وذلك بعد ان اضاع ثروته - رحمه الله - فى الخير والاحسان .

فإذا كان أهل الفقيد من ذوى الدخل المحدود فلعلهم يستطيعون - وفقا لهذه الطريقة - ان يغطوا مصاريف المأتم عن طريق

الاعلانات التجارية ، كأن يكلفوا المذيع بأن يقول بين دقيقة وأخرى :

- وقد عاش الفقيد تسعين عاما وهو فى اتم صحة لأنه كان يعرف كيف ينتقى سيجارته .. دخن سجائر كذا تضمن الحياة تسعين عاما .. سجائر كذا تباع بسعر العلبة .. ؟

- نعم ، انها طريقة مريحة ، وعملية ومربحة .

كيف تستمتع بالملوخية

اذا كانت الملوخية عندك مجرد اكلة من الاكلات ، فهى عندى اخطر من ذلك بكثير ، وقد لا اكون مبالغا اذا قلت انى اعتبرها من المناسبات الهامة فى حياتى .

ولذلك اتوخى ان يكون طبخها فى يوم لا اغادر فيه البيت ، لكى احضر الحكاية من البداية الى النهاية ولا يفوتنى اى شىء من التفصيلات الممتعة .

على رخامة المطبخ ترقد الكتلة الكبيرة الخضراء ، ويد العمل الشريفة تلتقط منها العود بعد العود لكى تنزع منه الاوراق وتودعها فى الصينية اللامعة البيضاء . منظر يملأ نفسى بالبهجة لسبب لا أزعم انى اعرفه ، وهو فى اغلب الظن صورة ترسبت فى عقلى الباطن من ايام الطفولة ، لأمى وهى تقطف الملوخية بأصابعها الحبيبة أو لخادمة نجحت بهذه الطريقة اوتلك فى نقش صورتها فى عقلى الباطن .

فلو اتيح لى ان ارابط فى المطبخ لمراقبة ذلك المنظر المبهج لفعلت ، ولكنك تعرف ان (البك) رب البيت يحتاج الى اعذار قوية جدا لكى يبرر وجوده فى المطبخ دون ان يثير السخرية بين الايدى الشريفة العاملة ، خاصة اذا اكتشفت انه فى حالة استمتاع . ومن ثم اكتفى بأن اتمشى فى الصالة وانا اتنحنح بالوقار اللازم ، قانعا بالنظرات المتباعدة التى اختلسها كلما مررت بباب المطبخ .

الاعواد الخالية من الورق تتكاثر على ارض المطبخ شيئا فشيئا والصينية اللامعة البيضاء لاتبرح تمتلىء بالاوراق المباركة الخضراء ، فأعرف انه يمكننى الان ان اجلس وقد دخلنا فيما يمكن ان نسميه بمرحلة الاستمتاع الصوتى ، تلك المرحلة التى تبدأ بالطبع بصوت المخرطة وهى تعمل بالتخريط فى الاوراق محولة اياها الى تلك العجينة اللينة الجميلة الخضراء .

صوت رتيب الا انه مطرب على مدى ربع ساعة اكون قد دخنت فيه سيجارتين على الاقل ، ثم صوت رنين مفاجىء للكبشة التى تتمسح باركان الحلة الموضوعة على النار والحاوية للمرق . والمرق لايبرح يتشبع بالدسم المقدس للدجاجة الموضوعة فيه والتى يؤسفنى بالطبع انها دجاجة واحدة وليست دجاجتين . كما يؤسفنى ان تلك الدجاجة قد وصلت الى المطبخ مجمدة لا صاحية ، ومن ثم فاتنى ان أسمع صوتها وهى تكاكى مشاركة اياى فى الاحتفال بيوم الملوخية .

ثم أسمع صوت خرفشة ورقية لا أجد صعوبة شديدة فى استنتاج مصدرها ، خرفشة الاوراق فى حزمة الثوم وقد امتدت اليها يد العمل الشريفة لتنزع منها رأسا . وتلك الرأس يجرى الان تفصيصها

توطئه لان تضاف اليها الكسبرة ولأن يشنف اذنى واحد من أجمل الاصوات فى يوم الملوخية الا وهو صوت دقات الهون . يطربنى ذلك الصوت آخر طرب ، خاصة وهو يصدر عن هذا الهون الذى ورثته عن أمى والذى ورثته هى فيما أعلم عن أمها فأصبح هونا تاريخيا محملا بروائح تلك الايام السعيدة الخالية ، أيام كان طبخ الملوخية على دجاجة واحدة نوعا من الكفر بنعمة الله .

لكن الدق لا يلبث ان ينتهى كما تنتهى كافة الاشياء الممتعة ، ولحظة سكون قبل ان أسمع صوتا اعرفه هو الآخر جيدا ـ صوت الملعقة وهى تقرع على قاع الطاسة لكى تتخلى من كتلة السمن اللاصقة فيها . والسمن قد بدأت تقدح على النار لكى تستقبل محتويات الهون ، فلأطفىء هذه السيجارة لكيلا تغلب رائحة الدخان على الرائحة الاخرى المتوقعة ، رائحة التقلية حين يتم اللقاء السعيد بين كل من السمن الذى فى الطاسة والمزيج المبارك للثوم والكسبرة ، وهى لعمرى من أجمل ما يصل الى الانف البشرى من روايح لاسيما اذا كان انفا مصريا مثل انفى . رائحة نابعة من أعمق اعماق الحياة المصرية ، مزيج نادر من رائحة الحقول حيث نبتت الملوخية والثوم وحيث نقرت الدجاجة بمنقارها فى الارض الطيبة ، ومن رائحة الغورية حيث يبعث لنا الكسبرة ، دعك بالطبع من رائحة جدتى صاحبة الهون . فوالله ما ادرى لماذا لاتعمد مؤسسات العطور الى تعبئة تلك الرائحة فى زجاجات اوفى بخاخات صغيرة يعطر بها الرجل الذواقة بيته فى الايام اللا ملوخية ، وزوجته الذواقة مثله تبلل اصبعها بنقطة من الزجاجة تمسح بها ما وراء اذنها مساء كل

خميس .

والرائحة بالطبع على خلفية ممتعة من انغام الشكشكة ، حاجة كده كما يقول الموسيقيون (تريمولى) . لكننى اعد اذنى للصوت الاخر الذى اعرف انه قادم لاريب فيه ، صوت التقلية حين تضاف الى الملوخية وتصرخ الحلة قائلة طش ! صوت يهز اعماق نفسى بشدة ، اشبه شىء بتلك الطرقات العنيفة التى تعلن ان السيمفونية قد وصلت الى احدى الذروات الدرامية الحامية .

ثم تهدأ الامور الا من ازيز جديد خافت ، ورائحة الدجاجة التى تحمر فى السمن ، يضاف الى رائحة التقلية ، ختاما مسكا لساعتين من العمل الغذائى المثمر . فما اسعدنى ـ انا الرجل الشرقى عند مقارنتى برب البيت الغربى ، ذلك الرجل التعس الذى قد لايسمع فى يوم اجازته صوتا سوى صوت الفتاحة وهى تفتح علبة من اللحم المحفوظ .

ولقد يدهشك بعد كل هذه الهيصة اننى لا أكل من الملوخية اكثر من ملعقة أو اثنين ابلل بهما وجه صحن من البطاطس البورية الذى يتكون منه غذائى الرئيسى ، مع نقطتين من الدمعة احقق بهما نوعا من التناغم بين الاخضر والاحمر فوق الصحن اللعين . وقاك الله يا اخى شر ضعف المعدة ، ورحم الايام التى كان المرء فيها يأكل قصعة كاملة من فتة الملوخية ثم يقوم جائعا .

فاستمتاعى بالملوخية ـ كما ترى ـ ليس استمتاعا بأكله ، بقدر ماهو استمتاع بالطقوس المصاحبة لطهوها ، أى انه استمتاع روحى

خالص يوشك ان يصل ـ كما رأيت ـ الى حد التصوف . ومعذرة لكى انهض واتبع تلك الدجاجة التى تتراقص امامى نحو حجرة المائدة على صحن تحمله احدى ايدى العمل الشريفة .

بينما كنت أكل كحكة !

ذات يوم فى نهاية سنة ١٩٦٨ خطر لى ان اقلب فى الصحف القديمة راغبا فى استذكار ما حدث لى وللناس فى عام مضى ، وانتهيت فعلا من تقليب كافة الصحف التى صدرت فى يناير وفبراير من ذلك العام ، ثم قعد بى الكسل عن ان اعمل مسحا شاملا للعام كله . واليك هذا التقرير التراجيكوميل عن احداث الشهرين المذكورين من ذلك العام .

من تلك الصحف القديمة عرفت ان الشىء الوحيد المؤكد الذى كنت افعله فى ليلة رأس السنة الماضية هو اننى كنت الوك قطعة من الكحك ، او اشفط شفطة من كأس ويسكى ، أو اشفط من الاخير الوك الاولى كنوع من المزة غير الموفقة . اذ بدأ العام بتلك المصادفات الفلكية السعيدة التى تم فيها ذلك الزفاف المقدس بين عيدى الشمس والقمر ، على صوت اصطكاك مليون صاج من صاجات الكحك ، وتقارع مليون كأس من كئوس الانخاب ، وقرقعة مليون

قلة تنزع من زجاجات الشمبانيا ، وكركرة مليون ديك تساق الى المطابخ ، وعلى الارض الطيبة سالت انهار من النبيذ والسمن البلدى والدم الرومى .

ـ موش كنتى تكترى السمن شوية !

هكذا لابد ان اكون قد قلت لزوجتى وانا اتذوق الكحكة ، ولابد ان تكون قد ضحكت ساخرة ورددت قولها المأثور :

ـ آل اطبخى ياجارية آل كلف ياسيدى !

وفى تلك العزلة الكحكية المضحكة لم يشعر اى منا بشىء من الاحداث الخطيرة التى تدور حولنا ، وكيف كانت دماء الديوك الرومى شيئا قليلا بجانب الدماء البشرية التى تسيل هى الاخرى انهارا ، والتى بنفس السماحة شربتها امنا العجوز الطيبة : فى اليمن حول صنعاء ـ كما تقول الصحف ـ حيث مات مئات المسلمين برصاص اخوانهم المسلمين ، وفى القدس وغزة وسيناء حيث تدخل الرصاص اليهودى فى سفك المزيد من الدماء المسلمة ، وفى فيتنام حيث دارت ١٦٨ معركة فى خلال ٣٦ ساعة كان مقررا ان تكون هدنة بمناسبة رأس السنة ، ومنافسة حامية بين المسيحيين والبوذيين فى سفك دماء بعضهم البعض .

لاشك ان جونسون كان اسعد منى وهو يشرب كاسه على مزة من نسيرة الديك ، ولكن سعادته ما لبثت فى أغلب الظن ان تبخرت عندما رن التليفون قائلا انه قد مات من ابنائه فى فيتنام ٣٢٣ شابا .

فلابد انه كف عن المضغ نحوا من دقيقة على سبيل الحداد ، اسفا على أولئك التعساء الذين لاشك فى انهم كانوا يفضلون قضاء ليلة

العيد فى مانهاتان حيث يموتون فى حوادث السيارات .

ـ والعجمية قليلة كمان !

هكذا لابد ان اكون قد اضفت سادرا فى جهلى بما يقع حولى من جلائل الاحداث . فبينما كنت امد يدى الى كحكتى كان هناك رجل آخر يمد يده الخاصة فى التجويف الصدرى لطبيب اسنان مهدد بالموت ، وذلك لكى ينتزع قلبه القديم الخردة ويركب له قلبا جديدا نابضا بالحياة ، الدكتور بارنارد فى ثانى عملية له من عمليات زرع القلوب ، مثبتا بذلك انك فى اختصاصك لقلبك بوظائف الحب او الحكمة او غير ذلك لست احكم كثيرا من صديق لك يختص بتلك الوظائف كاربوراتير سيارته .

وعلى مياه الشاطىء السومطرى تأرجح طوف من الخشب ، وفوق الطوف أربعة أطفال يلوحون لأمهم الواقفة على الشاطىء متضاحكين عاجزين عن ادراك السر فى تلك النزهة البحرية الفاجئة التى اعدتها لهم الام الطيبة . ومعذرة ياعزيزى القارىء اذا اخفيت ذلك السر عنك ايضا ، على سبيل التشويق الدرامى الذى يخفف من وطأة هذا التقرير الجاف .

ـ دى بقى مافيهاش عجمية خالص !

لأننى لم اكن اعرف بالطبع ان الرياح قد قررت فى تلك اللحظة ان تقوم بما يشبه ثورة عالية ، فدمرت فى جلاسجو ٧٠ الف منزل اكتسحت خيام اللاجئين وقتلت ـ بمساعدة الثلوج ـ ١٨ لاجئا ، ثم عرجت على الاسكندرية فأقفلت بوغازها واطارت سيدة من بلكونتها فى الطابق الرابع .

احداث فظيعة كما ترى وان كانت اهون مما جرى فى صقلية ، حيث كان الالاف من الصقليين يتكورون تحت الصفر ، عندما اكتشفوا فجأة انهم لايتغطون باللحاف وحده وانما بسقف البيت، ايضا ! اذ اهتزت الارض فجأة فى أوسع زلزال ، وطوال اسبوع كامل ظلت تهتز حتى دفنت تحت الثلوج قرابة الف من الناس .

ـ دى عجمية لكن محروقة !

ولحست شفتى من السكر فى اللحظة التى ربما يكون قد لحس فيها شفتيه ذلك الذئب الايرانى الذى تقول الصحف انه نجح ـ مع بعض الأصدقاء وخلال اسبوع واحد ـ فى التهام ١٨ عجميا وعجمية ! وربما كانت ايضا هى اللحظة التى هوت فيها الى مياه جرينلاند تلك الطائرة الامريكية التى تحمل ٤ قنابل هيدروجنية ، والتى وصفوها بأنها كانت فى تلك الحالة الدائمة من الاستعداد للعمل . فهو تفسير لايثير فى النفس كثيرا من الطمأنينة ، ولست اشك فى ان تلك الطائرات المستعدة دائما للعمل سوف تكون نوعا من الحاجز الذى يزعج اكثر من امريكى مؤمن وهو يرفع بصره باحثا عن ابيه الذى فى السماء .

وعلى مياه سومطرة مابرح الطوف يتأرجح ، والأم الطيبة قد صارت اشبه بنقطة صغيرة حيث وقفت على الشاطىء البعيد ، وحيث بدأت سومطرة كلها تختفى عن ابصار الاطفال الأربعة . فلما غابت الشمس وبدأ الظلام يبتلع البحر لابد انهم شرعوا فى البكاء حتى بعد ذلك حين يطلع القمر . فما اظنه يخفف من بلوى العيال ان يعرفوا ان ذلك القمر كان فى تلك اللحظة يستقبل على أرضه الباردة

جسما غريبا هو سفينة الفضاء الامريكية سير فيور ٧ .

ـ دى يبقى محروقة ومافيهاش عجمية كمان !

فكيف كان لى ان أعرف ان ستة شبان فى واشنطون كانوا يصابون فى ذلك الوقت بالعمى من طول حملقتهم فى قرص الشمس على اثر تعاطيهم لجرعة من ل . س . د ؟ وان سبعة هنود قد نزلوا نهرهم المقدس ليقاوموا برد الجسم بشىء من دفء الروح ، فما برحوا يتكتكون حتى تجمدوا وطلعت روحهم ! ! وان كمال الطويل قد وقع وانخلع ذراعه ، وانه بعد تلك البلبلة الخبرية الطويلة برز ذلك الخبر الذى يؤكد طلاق سعاد حسنى ! !

ـ يانهار اسود ! الكحك خلص . .

فلك ان تتخيل فزعى وانا احملق الى الصفيحة الفارغة إلا من بقايا فى قاعها للفتافيت والسكر . ولكننى ذكرت ان يناير كله قد انتهى وليس للكحك ـ اى عمل ـ ان يبقى اكثر من شهر كامل ، فبللت اصبعى ورفعت به بعض السكر لالحسها وانا اتنهد بالاستسلام الفلسفى المناسب ، على صوت ضجة بعيدة ربما تكون صادرة من طائرة الركاب التى سقطت ومات معها ٦٢ راكبا ، أو عن سيارة البنزين الامريكية التى انفجرت بجانب مدرسة فقتلت واصابت ثمانين تلميذا ، او عن الانهيار الجليدى الذى اكتسح فى هيمالايا قافلة مكونة من ٢٣ سيارة ، أو عن المسدس الذى اطلقه الرجل الامريكى على زوجته واولاده الثلاثة قبل ان ينتحر ، أو عن عويل الاب الامريكى الاخر الذى عاد الى بيته لكى يكتشف ان اولاده العشرة قد احترقوا جميعا ، وانه قد صار عليه ان يعاود الكفاح

من جديد ؟

واولئك العشرة اسعد حظا من باخوتهم الاربعة الذين يتأرجحون على الطوف العائم ، والذين لايبعد ان يكونوا قد اصبحوا ثلاثة لاغير بعد ان تدحرج احدهم فى الماء خلال نومه . وممكن جدا ان يكونوا قد ماتوا من الجوع والعطش ، ان لم يكن قد اراحهم من ذلك العذاب وحش من وحوش البحر ، شاكيا وهو يلتهمهم من قلة اللحم التى يلاحظها فى العهد الاخير فى ابدان اهل المنطقة ، اذ لابد انهم كانوا هزيلين جدا أولئك الاطفال الاربعة ، بعد ان يئست امهم من قدرتها على اطعامهم فى يومها او فى غدها فوضعتهم على ذلك الطوف المتأرجح ودفعت بهم الى البحر العريض وديعة مقدسة بين يدى رب لهم رحيم !

ولاينتهى فبراير بغير ذلك النبأ الداعى الى التفاؤل ، عن اكتشاف نجم جديد يرسل اشارات توحى بأن فيه كائنات عاقلة تحاول الاتصال بالارض . بل انه خبر مسرف فى تفاؤله ، فأنا اظن انك توافقنى على انه لكى ينجح اهل ذلك الكوكب فى الاتصال بالارض يجب ان يتوافر قبل ذلك شرط صغير . . هو ان يكون على الارض مثل الحال على ذلك الكوكب ـ كائنات عاقلة !

دعوة الى الريف

لو انك شرفتنا بالزيارة وتمشيت معى الى آخر شارعنا ـ حيث اقيم فى اهرم ـ فستقابلك ترعة صغيرة لست اشك فى انها ستعجبك بصفى الاشجار التى تنمو على شاطئيها وترسل اغصانها متدلية تداعب الماء فى حنان . وعندى لك منظر اخر اكثر جمالا ، بعد ان تعبر الترعة على هذا الجسر الخشبى الصغير وتسير على الضفة الاخرى خطوتين .

الحقول الخضراء المنبسطة الى مدى الشوف ، لن انسى فرحتى يوم اكتشفت وجودها بالقرب من بيتى لأول مرة . طبعا كنت قد رأيت الحقول قبل ذلك ، ولكنها كانت دائما خضرة بعيدة مهتزة على ضجيج قطار مسرع أو من نافذة سيارة تستغرقنى قيادتها . اما هنا فالوضع يختلف ، امام هذه الحقول الثابته المستقرة الوادعة ، هذا البساط السحرى الذى اعتذر عن وصفه بأنه سندس اخضر ، حيث انه لا انا ولا انت قد رأينا فى حياتنا سندساية واحدة .

الخضرة الزاهية التى تشرح الصدر ، النظيفة تغسل الروح ، فسيحة مترامية ، يمرح البصر فيها بحرية غير ذات حدود . فالبصر فى المدينة اشبه شيء بالكلب المربوط ، وسط الزحام الخانق والاف السدود من الطوب والاسمنت . اما هنا فقد حان له ان ينطلق ويبرطع ماشاءت له البرطعة فى الابعاد الخضراء ، مثل الكلب الذى اطلقه ليلوش على الشاطيء فى احد افلامه ان كنت تذكر هذه الامور .

فى البداية كنت اكتفى بالوقوف امام تلك الحقول صامتا مبهورا ، ارى سككا كثيرة تخترقها ولكننى اخاف ان اسلكها . فرجل حضرى مثلى جدير به ان يخاف اختراق الحقول غير مدعو من اصحابها ، ولاشك ان رجلا من فئة المثقفين سيبدو غريبا بعض الشيء وسط فئة الفلاحين . غير انى مابرحت ان تجاسرت وسلكت اول سكة قابلتنى ، مواجها بالكبرياء اللازمة تلك النظرات العدائية التى قابلتنى بها على شاطيء احدى القنوات عيون ثلاث بطات ووزة . وكلب رابض على الارض المغبرة مررت به متجاهلا ، رمقنى هو الاخر بنوع من الاستغراب وبدا من امره انه يفكر فى النباح ، ولكنه ـ لسبب او آخر ـ غير فكره واكتفى بزومة صغيرة دون ان يرفع عنقه الممدود على الارض .

ـ يعنى خلى بالك تتمشى وبس « هكذا قال لى » لكن تمد ايدك على الزرع وقعتك سودة !

وهى صفقة لعمرى جد عادلة ، وصفقة مماثلة عقدتها بالنظرات مع صاحب الحقل الذى وقف يرقبنى فى اهتمام مشابه ، مشمر الجلباب الى خصره عن ساقين سمراوين معروقتين ، لحظة من الدهشة ثم رفع الفأس وهوى به على الارض الطيبة وقد نسى كل شيء عنى . فأدركت ان احدا لايكرهنى فى المكان بشدة ، ومالئا صدرى بالهواء النقى القيت بنفسى بين الاحضان الرحيبة الخضراء .

ياله من ساذج ذلك الذى اخترع كلمة الاخضر كناية عن الخضرة كلها ، وانا الذى احصيت بنظرة واحدة حولى ثمانية الوان خضراء متباينة ، تتناغم هنا وتتناقض هناك ومن جماع كل ذلك ينجم نوع من الهارمونية المعجزة ، أكاد أبصر تلك الحقول على خلفية من اجمل قصيد سيمفونى اخضر . ولذلك تفتقت عبقرية اللغة عن كلمات مثل الفزدقى والزيتى والكمونى والجنزارى وغيرها لكى تعبر عن مختلف الظلال الخضراء ، وذكرنى ان اسأل صديقا من الفنانين عن العدد الحقيقى لدرجات الاخضر .

الخضرة الخضراء واحساس بالنماء يملأ الروح ويطهرها ، ملايين الاعواد التى تنمو فى كل لحظة وتنمو دون ان الحظها . نبض الحياة احس به فى عروقى ، وشعور صوفى عجيب بقربى من الله رب النماء . ونسمة خريف طرية تهب على الحقل فيرتعد ويتموج ويصبح بحرا كبيرا اخضر ، وبدلا من طيور البحر البيضاء عشرات من فراشات بيضاء مثلها تحوم فوق الامواج ، تحط لحظة فوق العيدان الخضر ، ثم تطير حاملة رسالة الحياة من رحيق وبذور .

والسكون العميق العميق ، لايقطعه سوى صيحة لطيفة لطائر يقول فوق رأسى كاك . ببصرى اتابعه وهو يمرق كالسهم حتى يختفى

عند ثلاث قمم بعيدة للاهرام . وفى جوف السكون صرير خافت يعلو شيئا فشيئا كلما دنوت منه ، صرير لطنبور فى القناة وحوله فلاح كهل وولده ، فى صبر فرعونى جميل يتعاونان على ادراته وقد غاصت اقدامها فى المياه التى ارجو مخلصا الا يكون فيها بلهارسيا . ويبصر الكهل ساعة فى يدى فيسألنى عن الوقت ، اخبره به فى سرور من هذا التعاون السهل الذى يمكن ان يقوم بين مثقف وفلاح . والحمدلله ان الوقت قد صار له سعر فى الحقول ، وارجو ان يكون الرجل الطيب على موعد مع صديق ، لامع محصل بنك التسليف .

وصوت تكتكة يعلو على الصرير المتباعد ، وفى قناة اخرى ارى ذلك الخرطوم الطويل السميك الذى يتدلى فى الماء ماكينة الرى . صوت يزعج الاذن الشاعرية بالطبع ولكنه يسعد العقل ، بهذه الصورة الطيبة للتزاوج بين البرسيم والتكنولوجى .

وجرادة تنط على الارض تحت قدمى ، الى نبات الحلفاء حيث تخرفش سحلية هاربة . وفى وسط الخضرة المحيطة بى افاجأ بمربع كبير ازرق اللون ، فى حقل الكرنب الذى آكله طول عمرى متوهما انه اخضر . فما ابعد الفرق بين الكرنب فى صحن على السفرة وبين هذا الكرنب الحى ، وما الكرنبة كما اراها فى هذا الحقل الازهرة جميلة وان بالغت الطبيعة بعض الشىء فى حجمها ، ما تقل والله فى جمالها عن زهرة الكريزانتيم . فما ادرى لماذا قصروا استخدامها على حشو البطن ، ولرب واحدة من هذه الزهرات الكبيرة الزرقاء فى فازة من الكريستال تجعل حجرة الصالون آخر روعة . وهذا بالطبع ما لم تكن اوراقها مليئة بالثقوب مثل هذا الكرنب الذى تعرض لغارة

رهيبة من الديدان . فلماذا لم يستخدم صاحب هذا الحقل نوعا من المبيدات ؟ اتراه لم يأخذ حصته فى الموعد المناسب ، ام تراه اخذها وطلعت مغشوشة ؟ ام اخذها وباعها لكى يستخدم ثمنها فى تعمير الجوزة ؟ اسئلة تلح على ولكننى اسارع بطردها من دماغى ، اذ قد جئت لكى استمتع لا اتفلسف .

وتلك الشجرة فى اغلب الظن شجرة سنط ، شىء فيها يقول لى ـ وان كنت غير خبير فى تلك الامور ـ انها شجرة سنط . وتحت الشجرة ـ ما هذا الذى تحتها ؟ ـ آه جاموسة ! وقبل ان نصل اليها احب ان اخبرك بأن الجاموسة فى الحقل شىء مختلف كل الاختلاف عن الجاموسة فى ميدان الجيزة ، أو على كوبرى الجامعة ، وما الى ذلك من الاماكن الحضرية المزدحمة . هى هناك كائن مسرع مشوش مضطرب وسط زحمة المرور ، قبيح المنظر بالطبع عند مقارنته بما حوله من السيارات المرسيدس اللامعة والاوتوبيسات المجرية ذات المفاصل . اما هنا فى بيئتها الطبيعية فالجاموسة تحفة من التحف ، نموذج كامل للطمأنينة والسلام حيث تجلس تحت شجرة السنط وسط الخضرة الساكنة الخضراء . بعينها السوداء البراقة تنظر الى فى لا مبالاة جاموسية نادرة ، لاتحبنى ولاتكرهنى ولاتخاف منى ولا اى شىء . هى قد عرفت ان الانسان لايؤذيها فلماذا تخاف منى ! يلزمها قبل ذلك ان تقوم بزيارة للمذبح وهى بعد أصغر سنا من تلك الزيارات . كل ما يفعله بها الانسان ـ هكذا تعلمت ـ هو ان يربطها بعض الاحيان الى المحراث او النورج ، متجولا بها فى ارجاء الحقل فيما يشبه الرياضة اللطيفة . وفى الصباح يحلب لبنها الذى لاحاجة بها

اليه ، ولعلها فى تلك الاثناء تمارس بعض المشاعر الحسية اللطيفة .
وفى النهاية يتركها هنا لتستمتع بحياتها الوادعة تحت الشجرة التى لابد انها شجرة سنط . لاهى قلقة كالعصفور ، ولاعصبية كالقطة ، ولامتحفزة كالكلب لعض كل من هب ودب . معاهدة ابدية بينها وبين الناس الا تؤذيهم ولايؤذوها ، فما يلزمها ـ هناك حيث جلست تحت شجرة السنط ـ سوى ان تهز ذيلها بين حين وآخر لكى تنش عن مؤخرتها ذبابة متطفلة . اتمنى ان اجلس امامها ساعة اناجيها ، لولاتلك الصبية الخافية التى تظهر دائما من جوف الحقل وتقبل مسرعة ، خائفة على جاموستها من ان تصيبها متى ضربة عين تأتى بها ارضا .

وتنعطف الترعة فتنعطف معها السكة الزراعية وانعطف انا مع الاثنين ، أواجه الشرق حيث تلوح لى من بعيد اشباح لمبانى المدينة المكدسة . برج التليفزيون الشامخ يشب قدر استطاعته لكى يعلو على شجرة الكافور القريبة ، يغلبها فى الارتفاع ، ولكننى احبها اكثر منه . هى تنمو طول الوقت ، وهو لاينمو ، هى تميل مع الريح ، وهو جامد فى مكانه كالخازوق ، وبالطبع لا اذكر اننى قد سمعت اى نوع من الكلام الفارغ من شجرة كافور . وغير بعيد عن برج القاهرة قبة مستديرة لكنيسة ، ومآذن القلعة الشامخة فوق جبل المقطم ، وناطحة سحاب تحمل فوق دماغها اعلانا لا اميزه ، ولكننى اذكر انه اعلان سجائر ، دعك من الاهرامات الثلاثة التى اشعر بها وراء ظهرى ، كل العصور تخاطبنى فى تلك البقعة الجميلة الخضراء ، عصر الفراعنة وعصر المسيحية وعصر الاسلام وعصر

البلمونت .

فلا ملأ صدرى بذخيرة من هذا الهواء النقى قبل ان انصرف . الهواء الذى احب كل مافيه من رائحة النبات ، ورائحة الارض ، ورائحة الجاموسة السوداء تحت شجرة السنط . وانها ورب الخضرة والنماء ـ لفسحة جميلة ، اعتقد انك تحب ان تكررها معى . هل اسمعك تقول لا ؟ احسن ، فلربما اجاعك المسير وصرف ذهنك الى احتمالات الغداء !

سبب للسخرية

كثيرا ما تساءلت ، وسئلت عن السبب الذى من أجله أميل الى السخرية ، ولماذا لا اعيش مثل غيرى من الناس فى رضاء بما حولى من المسلمات ، وادعا هادئا مطمئنا فى الظلال الوارفة لشجرة الاجابات الجاهزة . وبشىء من التفكير وجدت ان هذا المزاج الساخر القلق كان شيئا لامفر منه ،وكان نوعا من رد الفعل الطبيعى لسنوات طفولتى وشبابى ، تلك السنوات التى قضيتها وأنا اكثر الناس هدوءا واطمئنانا ورضاء بما حولى من المسلمات والاجابات الجاهزة .

من طفولتى الاولى تملكتنى تلك العادة الذميمة ، عادة تصديق كل شىء يقال لى من الآخرين ، وخذ مثلا حكاية الثور الذى يحمل الارض . بمنتهى البساطة قبلت هذه المسلمة التى ساقتها الى امى مؤيدة بخالتى وعمتى والخادمة التى لم تكن فى ذلك العهد قد رقيت الى شغالة . ومرت سنوات طويلة وانا احنى رأسى احتراما لذلك الثور الكريم الذى يتجشم كل هذا العناء من أجل راحتنا . وهو

ـ كما قالت امى ـ يحمل الارض على قرن واحد لا قرنين ، وذلك لكى يتاح له اذا ماتعب احد قرنيه ان ينقلها الى القرن الآخر ، متسببا بذلك فيما يقع بين حين وآخر من زلازل وهزات .

ومع ذلك فيبدو انى لم أخل فى ذلك العهد كل الخلو من رذيلة الشك ، بدليل ذلك السؤال الذى اذكر انى وجهته لأمى ذات يوم . اذ قلت لها انه اذا كان من الضرورى لهذا الثور لكى يحمل الارض ان يكون واقفا على الارض فكيف يتاح له ان يحملها وتحمله فى وقت واحد ؟ سؤال لابد أنه أربكها وافحمها ، لكننى لا اظنها عدمت ردا يسكت شكوكى ويردنى الى حظيرة التسليم الصامت بذلك الثور الجليل .

هذا مثل بسيط لما كنت اتحلى به فى تلك السن البريئة من جدية تامة نحو مسلمات الآخرين .

وعندك ايضا حكاية لقمة العيش الساقطة على أرض الطريق . فوفقا لمسلمة اخرى من مسلمات امى قضيت سنوات طويلة وانا أعرف ماينبغى ان افعله عندما التقى بتلك اللقمة ، وهو ان انحنى بسرعة لالتقاطها قبل ان تطأها الاقدام ، وبالتوقير المناسب للنعمة احملها وأودعها بجانب اقرب حائط . ولقد كانت تغمرنى وانا امارس هذه العملية لذة صوفية كبرى ، حتى لقد كنت اسير مطرق الرأس اتصيد اللقم الساقطة ، ويكون يوما فاشلا ذلك اليوم الذى لا تصادفنى فيه لقمة .

وفى هذه المسألة ايضا ساورتنى بعض الشكوك ، فالشيطان كما تعرف وحش . اذ رأيت الفلاحين يدوسون على القمح فى كافة

الاجران ، فسألت نفسى . . لماذا لا يكون الوطء على القمح حراما الا وهو فى هيئة رغيف مخبوز ، ولكننى بالطبع سارعت بطرد تلك الشكوك قائلا لنفسى انه من السخف البالغ ان أتنحل لنفسى علما يتناقض مع مسلمات امى .

ولذلك اذكر ان وجهى قد احمر بشدة فى الحصة الاولى من حصص الجغرافيا ، عندما اكد لنا المدرس انه بالفحص العلمى للكرة الارضية تبين انه لايوجد تحتها اى نوع من الثيران وانها ـ الثيران ـ موجودة فوق الارض فحسب . فقد تبين لى مدى الغباء الذى جعلنى اصدق امى لمجرد انها امى ، وفى لحظة حرجة بدأت تتزلزل فى ذهنى كل ماتلقيت منها من مسلمات . وعلى اى حال فقد كان التحاقى بالمدرسة نقطة تحول فى حياتى ، اذ صارت المدرسة هى مصدر ما أتلقى من مسلمات .

ومن اول المسلمات التى تلقيتها من المدرسة انى يجب ان احب الوطن والملك ، مع ميل فى بعض الاحيان الى ترجيح كفة الاخير على الاول . ولذلك كنت انظر فى الصور الى شوارب الملك فؤاد . . فأرى فيها جلالا خاصا يناسب جلالته ، وكلام الجرائد اوهمنى بأنه لو جرحت يده الكريمة لسال منها دم أزرق اللون حقا . بل ان كثرة الكلام عن « الملك المفدى » جعلتنى اتمنى ان تتاح لى فرصة افديه فيها ، تلك الفرصة التى اشكر جلالته على ما كان من طلوع روحه الكريمة قبل ان يتيحها لى .

وواحد من اساطين النفاق تفتق ذهنه عن شىء اسمه حروف التاج التى ارجو الا تدعى انك اصغر من ان تذكرها . وللصغار

حقيقة اقول انها علامات فى هيئة التاج يحلى بها الحرف الاول من السطر الاول من كل فصل فى كل شىء يكتب او يقرأ ، وذلك لكيلا يغفل الكاتب او القارىء لحظة واحدة عن ذكر صاحب الجلالة . وحتى تلك البدعة المضحكة تقبلتها بالرضاء والتوقير ، وقضيت زمنا طويلا استخدم تلك الحروف . . لا فى كراسات المدرسة فحسب ، وانما فى كتاباتى الخاصة ايضا .

ومن المسلمات المدرسية بخصوص الأدب ، ان اعذب الشعر اكذبه ، وان السيارة - فى النثر - يجب ان تنهب الارض نهبا وتطويها طيا . وذورة الجمال فى كل من الشعر والنثر هى ان ينجح الشاعر او الناثر فى الوصول بقارئه الى حال من العجز التام عن فهم مايقرأ . ولذلك قضيت سنوات طويلة اتصيد فى الكتب الصفراء غرائب الكلمات ، أرصها فى كراسات الانشاء وآخذ على الدوام عشرين من عشرين . بل اننى كنت اتبع هذه السياسة فيما ابعث للناس من خطابات ، ولذلك لا اذكر انى تلقيت اى رد على اى رسالة ارسلتها لبنت الجيران . فأغلب الظن انها لم تكن تعجز عن فهم الخطاب فحسب ، وانما كانت تظنه جواب شتيمة !

هكذا كان تقبلى لكل ما يساق الى من المسلمات : كل شىء جميل وليس فى الامكان ابدع مما كان . والى الابد كان يمكن ان أحيا على هذه الصورة ، اذا كان يمكن لهذه الصورة ان تسمى حياة . وفجأة حدث شىء لا اعرف على وجه التحقيق ماذا يكون ، وربما كان غدة من نوع ماتفتحت فى جسمى بعد طول كمون ، وبدأت تضخ فى عروقى هرمونا خبيثا بالشك والسخرية !

اذ رأيت ذات يوم فى الاربعينات لقمة ساقطة على الارض

فهششت لها واسرعت اليها ، وانحنيت لألتقطها ، واذا بيدى تتجمد من تلقاء نفسها فى منتصف الطريق ، وصوت فى داخلى سمعته يصرخ فى قائلا : بتعمل ايه يا حمار ؟ ! وياخطارى اياه بأننى افعل ماكنت افعله طول حياتى عاد يصرخ قائلا : كفاية بقى . . اعقل . . فانصعت له كالمذهول ، ووقفت دون ان التقط اللقمة ، وعدت الى البيت وفى كل من جسمى وروحى رعدة شديدة غامضة .

واذا كان الكلام عن ذلك الهرمون نوعا مُن التبسيط للأمور فيجب ان نرجع بالأذهان الى تلك الايام العصيبة من الاربعينات ، وملايين القتلى والجرحى والمتشردين ، وجيوش روميل توشك ان تقضى الصيف فى الاسكندرية ، والختام المسك بقنبلتى هيروشيما وناجازاكى . كل تلك الاشياء التى زلزلت الارض نفسها كيف كان لها ان تمر دون ان تزلزلنى ؟ ؟

المسلمات تتزلزل فى نفسى مثلما تزلزلت فى حصة الجغرافيا يوم الثور حامل الارض ، وادركت اننى قد وصلت الى مفترق الطريق . . إما ان اقاوم ذلك الهرمون الطارىء وأواصل العيش فى جنة الاجابات الجاهزة ، واما ان اشرع فى البحث عن اجابات جديدة تناسب رجلا كف عن جمع اللقم الساقطة .

فبدأت استخدم ذلك الجهاز الذى يسمونه بالمخ ، اوقل بدأت احوله من جهاز تسجيل يسجل مايقال له الى جهاز ارسال يصدر هو افكاره الخاصة . وكان الأمر يحتاج الى شجاعة ، والحمد لله على ان الشجاعة كانت دائما من صنع الهرمونات . وكان اول ماكتشفته على هدى هذا الجهاز الجديد . . ان الذى اخترع حروف التاج وغد ، وان الذى يستخدم تلك الحروف حمار . فأحضرت استيكة مسحت

بها كل ما فى كتاباتى من تلك الحروف الوضيعة ، وواقفا امام المرآة لم يمنعنى من البصق على ذلك الحمار السابق ، الا اننى سوف اضطر الى مسح المرآة بفوطة . لأننى عجبت كيف صدقت كل ما قيل لى عن جلالة صاحب الجلالة ، ذلك الصعلوك الذى التقطه المندوب السامى من احد البارات واجلسه على عرش الكنانة وهو مدين بثمن الكوزماتيك الذى يبرم به شاربه !

لقد خدعتنى المدرسة ولكننى لن اخدع ثانيا ، ومن فورى سوف اعمل على استكمال دراستى فى مدرسة جديدة . وفى تلك المدرسة بدأت ادرس الادب من جديد ، وفيها تعلمت ان أعذب الشعر هو اصدقه لا اكذبه ، وبالاستيكة السابقة رحت أمحو من دماغى كل ما حشوه به من الوان الكذب الموزون المقفى . وفى النثر لم تعد سيارتى تطوى الارض طيا وتنهبها نهبا ، بل صارت تسير بالسرعة القانونية التى تحددها علامات المرور . وذكرت البنات اللواتى تلقين قذائف رسائلى ورثيت لهن من قلبى ، كما رثيت لنفسى بسبب كل تلك الفرص الممتعة التى ضيعتها لاعتبارات بلاغية !

فى تلك المدرسة الجديدة رحت اقرأ واقرأ ووجهى يحمر بشدة ، لو انك رأيتنى ساعتها لظننت اننى اقرأ قصصا أبيحة ! وانما كان وجهى يحمر خجلا من نفسى ، ومن الاباطيل والاكاذيب التى تواطأوا على حشرها فى دماغى . فكان لزاما على ان اسخر أو أن أنفجر ، وكانت السخرية بالطبع اهون الشرين .

كان يجب ان اجد القدرة على ان أنفصل عن نفسى لكى انظر اليها من بعيد ، نظرة رثاء لذلك الفتى التعس الذى تآمرت على

افساده قوى الجهل والنفاق ، ذلك الثور الجالس يجتر غذاء طفولته تحت شجرة الاجابات الجاهزة .

سخرت من نفسى فى البداية كفلان الفلانى ، وعلى سبيل الاسقاط . . بدأت اسخر من نفسى كواحد من القطيع كله . واذا أزعجتك كلمة القطيع فأرجو ان تذكر ان داروين كان واحدا ممن قرأت لهم فى المدرسة الجديدة . فمن المذكور عرفت حقيقة اسلافى ، وعرفت كيف انه فى ذات يوم كان أبى - مع الاعتذار لاحسان عبد القدوس - فوق الشجرة ! قردا مثل سائر القرود ، غامر يوما بالنزول الى الارض فانتصبت قامته وراح يتطور عبر آلاف السنين حتى صار انا . فكيف بغير السخرية يمكننى ان أحتمل هذا النبأ المزعج عن شجرة العائلة ؟ وماذا غير السخرية يعوضنى عن ذلك الشعور السابق اللذيذ بأننى سليل آدم الذى فضله الخالق على الجن والملائكة ؟

وازداد احمرار وجهى حين بدأت اقلب فى كتب علم النفس ، وحين علمت ان كثيرا مما افخر به من السجايا ماهو الا نوع من رد الفعل للطريقة التى كانت ترضعنى بها أمى اذا جعت ، أو تنظفنى بها اذا اتسخت ، وان وعيى الذى افاخر به ليس الا قشرة على سطح لاوعى غامض مجهول ، أو قل غطاء نظيفا لامعا فوق اكداس من الكراكيب القديمة والاشياء العفنة البالية . وفى تلافيف ذلك العالم الغامض تدوى اصوات كثيرة مفزعة ، عواء طفولتى مع زئير اسلافى يوم نزلوا من فوق الشجرة . شيكسبير أو بتهوفن او بيكاسو لست فى النهاية الا واحدا من تلك القرود حلق شعره واخذ دشا !

وكوكبي الذي كان ذات يوم مركز الكون لم يعن الا حبة رمل بين بلايين الحبات المنثورة فى صحراء الكون . والكون نفسه صار فضاء تسبح فيه تجمعات المادة اكثر منه مادة يحيط بها فضاء . متمددا أحيانا ، منكمشا احيانا أخرى ، وطاف الى الابد على سطح ما يشبه فقاعة صابون كبيرة مكهربة .

حتى الاشياء الملموسة تغير ملمسها بشدة ، بعد ان صار هذا القلم الذى امسك به مجرد طاقة تجمدت فى شكل مادة ، وليس يلزمه الا مربع سرعة الضوء لكى يختفى وافاجأ بأننى لا امسك شيئا !

وناظرا فى المرآة اعرف اننى انظر كل صباح الى كائن جديد بعد ان اخبرنى البيولوجى بأمر خلاياى التى لاتبرح تموت ويولد غيرها ، واننى مثل الشلال الذى نراه ثابتا وهو فى الحقيقة يتغير فى كل لحظة ، مع فارق طبعا هو اننى اتغير الى الاسوأ !

وحتى الخلود لم يعد له معنى منذ صار الزمن بعدا رابعا ، ولم يعد ثمة فرق بين قولى اننى سأعيش من الان الى الابد ، وقولى اننى سأعيش من هنا لدرب التبانة !

بعد كل هذا كان غريبا بعض الشيء لو اننى لم اجنح الى السخرية ، ولو اننى لم افعل لوجب عرضى للفور على طبيب نفسى . . ! فلقد رأيت ماذا صنع العلم بما حوصرت به ذات يوم من انواع المسلمات سواء فى البيت او فى المدرسة ، واذا كنا قد بدأنا هذا الكلام بالبحث عن سبب للسخرية ، فيخيل الى الآن انه كان من الاصح ان نبدأ بالبحث عن سبب لعدم السخرية !

لماذا كرة البنج بونج ؟

يبدو ان نزعة العبث واللامعقول قد بدأت تتطرق الى اخر مكان يتوقعه الانسان ، الا وهو النكت التى يتداولها صغار التلاميذ فى مراحل الدراسة الاولى .

واليك على سبيل المثال هذه النكتة التى رواها لى ولدى الذى فى المرحلة الابتدائية نقلا عن اخيه الذى فى المرحلة الاعدادية ، والتى هى فى الحقيقة ليست نكتة بقدر ما هى مأساة تجسم لك إحساس العبث والضياع الذى يبدو انه قد انتقل من الرجل الى الطفل المعاصر .

ـ اجيب لك ايه اذا نجحت فى الامتحان

هكذا قال الأب لولده الذى فى السنة الاولى الابتدائية ، فتفكر الولد حينا ثم قال :

ـ كورة بنج بونج !

فظن الرجل ان الولد يمزح ولكنه كان جادا كل الجد .

- لازم قصدك طقم بنج بونج ، يعنى مضربين وشبكة وكام كورة .. موش كده برضه ؟

فهز الولد رأسه نفيا .

- لا يا بابا .. كورة بنج بونج .
- كورة واحدة ؟
- آه . .
- خلاص ، اللى يريحك .

وقال الاب لنفسه : انا ما دام الولد راضيا بتلك الهدية الصغيرة المتواضعة ، فلماذا يريد هو ان يرهق نفسه بهدية كبيرة غالية ؟ ومع ذلك فقد اراد ان يبرىء ذمته للمرة الاخيرة عندما اتت الشهادة معلنة عن نجاح الولد ونقله الى السنة الثانية .

- برضه عاوز كورة بنج بونج ؟
- أيوه يابابا .
- واحدة ؟
- واحدة يابابا .

فاشتراها الرجل وانتظر ان يلعب بها ولكنه لم يفعل ، بل اتى بقلم خط به عليها رقم « واحد » ثم وضعها فى احد الادراج واقفل عليها . ومرت الايام وبدا من امره انه قد نسى كل شىء عنها ، الى ان حان موعد امتحان السنة الثانية فاقبل ابوه عليه قائلا !

- هيه ياسيدى .. اجيب لك ايه السنة دى اذا نجحت

ولم يكن الولد محتاجا الى كثير من التفكير لكى يقول !

- كورة بنج بونج !

- تانى ؟
- آه . .
- انت موش عندك واحدة !
- آه . .

وعايز كمان واحدة ؟

- آه . .
- خلاص اللى يريحك .

ونجح الولد فى الامتحان ونقل الى السنة الثالثة ، فاشترى له أبوه الكرة التى وضعها الولد فى نفس الدرج بعد ان كتب عليها رقم اثنين . ونفس الحكاية تكررت فى السنة الثالثة ، ثم فى الرابعة والخامسة والسادسة ، بحيث ان الولد لم يحصل على الشهادة الابتدائية الا وفى درجة ست كرات تحمل كل منها رقمها الخاص .

فلما دخل الولد الاعدادية ظن الاب ان الامر سوف يتغير ، ولكن ابدا . ليس ثمة ما يطالب به الغلام مكافأة له على النجاح سوى ماكان يطالب به وهو طفل بالبنطلون القصير : كرة بنج بونج .

- يا بنى اجيب لك حاجة ثانية !
- مرسى يابابا .. مش عاوز حاجة ثانية .
- طب اجيب لك دستة كور ..
- لا يا بابا .. كورة واحدة !

ونجح الولد فى الامتحان ونال كرته السابعة ، ومر عامان آخران فحصل على الشهادة الاعدادية وقد صار عنده تسع كرات كل منها تحمل رقمها الخاص .

- اظن ثانوى بقى له احكام ثانية .
هكذا قال الأب لولده وقد اقترب امتحان السنة الاولى الثانوية .
- يعنى ايه يا بابا ؟
- يعنى موش معقول ح تقول لى كورة بنج بونج !
فبدت فى عين الولد نظرة استياء .
- لكن انا عايز كورة بنج بونج .
- طب ماتجيب معاها مضارب ، ونفصل ترابيزة وتلعب بنج بونج .
- ماحبش لعب البنج بونج .
- يعنى مصمم على الكورة ؟
- اذا كان يضايقك بلاش .

ودفن وجهه فى كتاب الكيمياء معلنا ان الموضوع قد انتهى ، فتنهد الاب وقال لنفسه انه لولا تفوق الولد فى دراسته لما كان هناك شك فى انه رزق بولد عبيط . وبشعور من السخافة المطلقة مد يده للولد بالكرة الجديدة التى استحقها بالنجاح فى امتحان السنة الاولى الثانوية . ولكن الولد تناول الكرة بنفس البسمة البسيطة الشاكرة ، وسجل عليها رقمها الخاص واودعها فى الدرج مع سائر الكرات .
وسنتان جديدتان ثم نال الثانوية العامة وقد صار عنده من الكرات دسته كاملة .

واحساس يشبه الفجيعة دهم الأب حين تبين ان الشاب الجامعى لايطالب بأى شىء سوى ما سبق ان طالب به الفتى والغلام والولد بالبنطلون القصير .

اربع كرات فى مقابل اربع سنوات من الدراسة الجامعية ، ثم ذهب الولد الى الكلية ذات صباح لكى يتسلم شهادة الليسانس .
ومن الكلية خرج وفى يده الشهادة التى بسطها بين يديه وراح يراجعها وهو يعبر الطريق . وكما يحدث كثيرا فى مثل هذه الظروف دوى فى الطريق صوت فرملة حادة عنيفة ، وتجمع المارة حول الشاب الذى صدمته السيارة وتركته بين الحياة والموت .
وهناك فى المستشفى رقد فى حال من الغيبوبة لمدة ثلاثة ايام ، وفى اليوم الرابع تفتحت عيناه للمرة الاولى على وجه ابيه الحزين .
- سلامتك يا بنى .. سلامتك ..
فتبسم الشاب فى ضعف وبدا انه يريد ان يقول شيئا :
- بابا ..
- ايه يا بنى .. ايه ؟
فجاهد الولد حتى نجح فى ان يقول بصوت متحشرج :
- انا عارف يا بابا انى عذبتك معايا بحكاية كورة البنج بونج .. وعشان كده ح اقول لك على سرها ..
فخفق قلب الأب بشدة وقد ادرك انه مقبل على سر خطير .
- عارف يا بابا انا كنت باطلب كور البنج ليه ؟
- ليه يابنى .. ليه ؟
- عشان .. عشان ..
لكنه لم يكمل جملته ، اذ شهق شهقة مفاجئة ثم مال رأسه على كتفه وقد فارق الحياة - مات الشاب ودفن معه الى الابد سر كرات البنج بونج .

ويختتم الولد - ولدى انا - حكايته بضحكة تناسب الفكرة التى عنده من انه قد حكى نكته ، وكان الله فى عون جيل تضافر عليه من الظروف ماجعله يستطيع ان يستخرج ضحكة من مثل هذه القصة العبثية الفاجعة .

لماذا احب نفرتيتى ؟

ناظرا الى ذلك التمثال الرائع لرأس نفرتيتى اشعر بحسد شديد للوغد الذى صاغته يداه ، لا لعبقريته الفذة فحسب ، وانما للمتعة النادرة التى لابد انه تمرغ فيها طوال المدة التى استغرقها صنع التمثال . فلو انتى كنت مكانه لعملت حسابى على الا تنتهى تلك المدة ابدا ، واقطع ذراعى ان قامت نفرتيتى من امامى قبل عام كامل على الاقل !

اذن اتخيل الحلوة « نفرت معناها الحلوة » وقد جلست امامى فى جلال هادىء على خلفيه موسيقية مطربة ، وانا اتأمل وجهها الجميل الحزين واتفحصه والتهمه وأنهشه بتلك الحرية الوقحة التى لايمكن ان تسمح بها الانثى لعين غير عين الفنان . فمن حقى ، بل من واجبى ، ان اتشرب هذا الوجه الى اعماق روحى ، والا فكيف انجح فى ان انطق به تلك الكتلة الصماء من الحجر الجيرى ؟ وما من شك فى ان نظراتى سوف تنحدر بين حين وآخر الى مناطق من جسم

السيدة لايبررها نحت تمثال لرأسها ، متجولا بعين الفنان الذواقة بين الكنوز الملكية الرابضة خلف الفستان الشفاف الذى تميزت به كافة الفرعونيات الشيك .

فهى متعة ـ كما قلنا ـ نادرة ، دعك من المتعة الاخرى التى تنتظرنى هناك ، متعة الحوار الفكرى مع ذلك العبقرى الفذ اخناتون ، نبى التوحيد الذى عاش فى الحقيقة . فما اظن انه كان ليتركنى بمفردى مع الحلوة مدة طويلة ، من ناحية . . لكى يستوثق من ان نظراتى اليها نظرات فنية خالصة ، ومن ناحية اخرى لكى يأخذ رأى زوجته وحبيبته فيما هو عاكف على كتابته من الاشعار الدينية .

بكتفيه المنحدرتين وكرشه المنتفخ وفخذيه الغليظتين يدخل علينا سارحا متمهلا ، فى عينه نظرة حالمة متصوفة ، وفى يده ورقة بردى وقلم .

ـ يا أيها الاله الذى صاغ نفسه بنفسه ، هكذا ينشد بصوت اعتقد انه رفيع ، والكلمات للعلم من تأليف اخناتون لا من تأليفى » يا صانع كل ارض وخالق ماعليها . . انت يا اله يا اوحد . . لقد خلقت الارض حسبما تهوى انت وحدك . . خلقتها ولا شريك لك . . يا من تسطع جميلا فى افق السماء . . يا آتون الحى يا بدء الحياة

ثم ملتفتا الى زوجته :

ـ ايه رأيك يا حلوة ؟

فتلمع فى عين الحلوة نظرة اعجاب صادق وتقول :

ـ هايلة ياتونى ، هايلة !

« تونى هو اسم التدليل الذى لايمكن ان تكون الحلوة قد وجدت احسن منه » والكلمات كما قالت رائعة حقا . اول كلمات قيلت فى التاريخ عن الاله الواحد ، فما حاجة امبراطوريتنا المتماسكة المتوحدة الى اكثر من اله ؟ وينحنى تونى ليطبع على خد الحلوة قبلة شاكرة ، ثم يولينا ظهره ويبتعد بورقة البردى وهو يهمهم بتلاوات اتونية مبهمة

واتناول انا الازميل النحاسى والمطرقة الخشبية ، واشرع فى معالجة الحجر بمانسميه نحن الفنانين « تهبيش الفورمة » ، واجاب القلب بما يناسب اللحظات التى ربما حددت مستقبل التمثال كله . وبينما ادق الازميل قليلا سوف يصبح رأس السيدة اراها تعتدل فى جلستها لكى تضع ساقا على ساق ، الامر الذى يوحى الى بفكرة

ـ ما تيجى اعمل لجلالتك تمثال كلى ؟

فتهز راسها وتقول تؤ ، مضيعة على ما تعرف اننى اطمع فيه من حق المعالجة الشاملة للجسم الجميل . وشيئا فشيئا تبدأ معالم الرأس الخارجية فى الوضوح ، وصوت اخناتون يبلغنا قبل ان يدخل علينا ، مواصلا انشاده من ورقة البردى التى تتأرجح فوق كرشه العظيم :

ـ انت الاب والام لكل ما خلقت . . اذا غربت فى الافق الغربى اظلمت الارض واختبأ الناس فى الحجرات وقد غطوا رءوسهم . . والسباع تخرج من جحورها والثعابين تنسل لتلدغ . . بعد ان استراح خالقها فى افقه الغربى . . ايه رأيك ياحلوة ؟

ـ رائع ياتونى ، رائع !

ولكننى فى هذه المرة لا اشعر اننى راض عن كلامه كل الرضا ،

فالغروب فى نظرى ظاهرة ملكية عادية ، وإذا غربت الشمس فليس هناك ما يدعو الى افتراض ان اتون يستريح . فهو هنا اشبه شىء باله اليهود الذى - منتهيا من خلق العالم - احس بالتعب واحتاج الى ان يأخذ يوم اجازة !

- يا خالق الجرثومة فى المرأة وصانع البذرة فى الرجل .. يا من تهب الحياة للجنين فى احشاء امه وتسكن من روعه فلا يبكى .. يا من تهب نسيم الحياة لتحيا به كل مخلوقاتك

لا بأس يا اتون ، ولا عجب ان نشيدك عجب داود فيما بعد فردده فى واحد من مزاميره . ويخرج فأواصل انا العمل : وما أجمل هذا الجبين الاسمر الذى بدأ يستدير بين يدى . فبينما انا أعمل ، افاجأ ذات يوم بشخصية جديدة تطرأ على المكان ، سيدة فى اواسط العمر قصيرة مخندقة ذات جمال ماكر . السيدة « ى » أم اخناتون وارملة امنحوتب الثالث التى ، لاسباب لا أعرفها - وفدت من قصرها بطيبة ، الى قصر ولدها بتل العمارنة . من التمثال تقترب فى خطوات ثعبانية وتقف لتتفرج ، لحظة من التأمل الصامت ثم تنبعث منها ضحكة ساخرة .

- ههىء ! حجر جيزى ؟ على أيامنا كانت التماثيل جرانيت !

وتتجه متقصعة الى كنبة قريبة لتجلس عليها ، فى اللحظة التى يدخل فيها اخناتون وبين يديه ورقة البردى الخالدة .

- أما الاشجار والنباتات فهى تزدهر . وأما الطيور فهى ترفرف خارجة من اوكارها تسبح بحمدك .. وتقفز الحملان على اقدامها ، وكل مخلوق تهتز اعطافه .. لانك تشرق من اجلها يا اتون الحى .

ومرة اخرى لا ارتاح الى كلامه ، اذ اشعر ان فى الاله هذا قدرا من « الحياة » يوشك ان يجعله بشرا مثلنا ، والاله كما احبه انا يجب ان يتنزه عن صفاتى وان يكون مختلفا متفردا ليس كمثله شىء

وهو فى هذه المرة قد وقف يتلو النشيد على امه لا زوجته ، واقفا امامها بالورقة التى تهتز على كرشه الكبير .

- ايه رأيك يا ماما ؟

- شربات ياروحى شربات ! آمون يخليك لى ياحبيبى !

فينتفض اخناتون كالملسوع :

- بتقولى ايه ؟ آمون !

فتضرب الارملة على صدرها

- يوه يقطعنى قصدى آتون ! ماتزعلش منى ياتون

ومطبطبة على كرشه ليجلس على الكنبة بجانبها ، وعلى خده الملكى تطبع قبلة . والحلوة ترقب المنظر وقد احمر وجهها ، صدرها يعلو ويهبط فيفضح عما تشعر به من غيظ

- قوم بينا نتمشى فى الجنينة .. قوم يا تون

وتنهض الارملة فينهض ولدها ، وتتأبط ذراعه ويخرجان وهى تتلوى بذلك الجسم الثعبانى الذى لابد قد منح امنحوتب الثالث اكثر من ليلة لاذعة . ورأس الحلوة قد بدأ يكتمل بين يدى ، الخدان الغائران والانف المدبب الجميل ، والجيد الناعم النحيل الذى اتنازل عن عامين من عمرى لكى امرغ عليه انفى

وابتسامة عريضة فاتنة ترتسم على شفتيها حين ترانى ادخل عليها ذات يوم بصندوق الالوان

ـ خلاص ح تلونني ؟ !
ـ خلاص يا مولاتى

وفرحا لفرحتها اخرج الالوان واشرع الفرشاة وأبدأ فى العمل ، وهذه الزرقة السابحة فى بياض العينين الجميلتين ، لابد ان اقترب من الحلوة لكى احدق فى عينها . عطرها يملأ صدرى ويسكرنى ، واختلاجة صغيرة فى زاوية فمها وقد تقابلت عيوننا فى تلك اللحظة من النشوة الفنية الغامرة . قريبة منى حتى اكاد الامسها ، غير انها فى الوقت نفسه ـ ما اتعسنى ـ ابعد عنى من بلاد بونت . ولكننى امنى نفسى بأن تضيق المسافة بيننا ، عندما يكتمل تمثالها وتعرف اى عبقرى انا

ثم التفت ورائى فتصدر منى شهقة مباغتة ، إذ افاجأ بأخناتون واقفا يرقب المشهد وقد تدلت ورقة البردى فى يده بجانب فخذه الغليظة . وبسرعة انتقل الى التمثال لكى اضع اللمسة الزرقاء فى بياض العين ، كى يعرف الرجل انى لم اكن العب . ويقبل بنفسه لكى يقف ورائى ويرى عملى ، نظرة ينقلها بين التمثال وزوجته ثم يرفع ورقة البردى امام عينيه .

ـ واما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى .. لتحيى به البشر ياسيد الجميع .. فاذا ما ..
ـ تونى .. تونيتونى !

صوت للارملة الطروب يقاطعه مناديا اياه من الخارج ، فيولينا ظهره ويبتعد وهو يواصل الهمهمة . ونظرة غيظ تتراءى فى عين الحلوة ، فأتوقف حينا عن العمل مخافة ان تطلع تلك النظرة فى

الصورة والظلال المصفرة الخافتة فى وادى خدها الظليل ، واللون الوردى الجرى، على الشفتين الدسمتين اللتين ادفع عاما من عمرى لكى الصق بهما شفتى .

ـ عاوزه اتفرج ..

هكذا تقول لى ، فأرفع يدى معترضا ، مخبرا اياها بان فنانا حساسا مثلى من شأنه ان يرتبك اذا تفرج الناس على عمله فى طور تكوينه ، وخير لها ان تراه عندما يكتمل حتى لاتحرم من فرحة المفاجأة

ـ اصلى نفسى اشوف روحى ..
ـ ح تشوفيها فى الوقت المناسب يامولاتى

وابتسم لها فتبتسم لى ، واشعر ان المسافة بدأت تضيق كما رجوت ، وان شيئا جميلا قد بدأ يتولد بيننا عبر تمثالها الفاتن . فلولا شبح اخناتون الذى يجثم علينا لأمكننى ان ..

ـ خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر .. ولقد تفرقت السنتهم واختلفت اشكالهم والوان اجسادهم .. وهكذا ميزت بين الشعوب

مقاطعة جغرافية تزعجنى طبعا ، ومقاطعة اخرى كانت تنتظر اخناتون نفسه . اذ يندفع الى الحجرة قائد من قواد الجيش وفى حال من القلق الشديد لكى يقول بصوت متلعثم :

ـ سوبيلو يا مولاى !

فينظر اليه اخناتون فى بلاهة

ـ سوبيلو ليه ؟
ـ سوبيلو ليوماس ، ملك الحيثيين يا مولاى
ـ ماله ؟

- هجم على سوريا
- هجم على سوريا ؟
- أيوه يا مولاى
- وخدها !
- لسه شوية ، وعاوزينا ضرورى نبعث لهم ولو خمسين عسكرى !
كده ؟
- ايوه يامولاى
- طب روح انت وسيبنى افكر فى الموضوع

فيخرج الرجل وتشرد نظرة اخناتون حينا الى الارض ، ثم يرفع ورقة البردى ويصحح فيها بالقلم شيئا . ومتنحنحا لأنبهه الى انى أريد العمل فى هدوء واشرع فى تظليل الانف الجميل للحلوة ، متمهلا متأنيا، مشفقا من ان ينتهى التمثال واحرم من هذه الجلسات اليومية الحلوة .

- موش ح تخلص بقى ؟

هكذا تسألنى الحلوة كل يوم فأقول لها هانت ، والواقع ان التمثال يعتبر فى حكم المنتهى ولكننى يجب ان أؤجل لحظة الفراق اطول وقت ممكن

- كل العيون ترنو اليك .. لانك آتون الذى يشرق على الارض .. انك فى قلبى .. ليس هناك من يعرفك سوى ولدك اخناتون .

وهذه وحق آتون انانية صريحة سافرة كنت احب ان اعلق عليها لولا دخول القائد سالف الذكر مندفعا كالمجنون .

- خدها يا مولاى !
- هو مين ؟
- سوبيلو ليوماس !
- خد ايه ؟
- خد سوريا !
- كلها !
- ايوه يامولاى .. ماهو لو كنا بعتنا لهم حبة عساكر ..
- بس ! روح انت وسيبنى افكر فى الموضوع

فيخرج الرجل وتشرد من جديد نظرة اخناتون الى الارض ، ومع الشرود هذه المرة شىء من النفخ الذى يعبر به عن انزعاجه الشديد من هذه المقاطعات التى تفسد عليه هدوءه وشاعريته . ثم يرفع ورقة البردى امام عينيه ويواصل الانشاد :

- نعم ليس هناك من يعرفك غير ولدك اخناتون ـ ولقد خلقت العالم وجعلت الناس يحيون .. كل ذلك من اجل ولدك الذى نشأ منك !

واذا كانت السابقة انانية فهذه لاتخرج عن كونها نذالة . فليس يمنعنى من توبيخه سوى ما اذكر من قول الحكيم بتاح حوتب :

- احن رأسك لرئيسك والمشرف على قصر الملك لكى يظل بيتك مفتوحا ! فما بالك وهذا الانانى هو الملك نفسه ؟
- ترفى .. تونيتونى !

صوت الارملة الطروب يناديه من بعيد فيخرج مليا :

- اف بقى موش ح تخلص ابدا ؟

هكذا تقول الحلوة وقد نفد صبرها ، ولمسه نهائية على انفها الجميل ثم اقول لها فى انتصار :

ـ خلاص يا مولاتى ! اتفضلى شوفى

فتهب من مقعد الموديل كطفلة فرحة ، وامام صورتها تقف متسعة العينين فاغرة الفم ، مفتونة مبهورة مسحورة متلاحقة الانفاس تلهث :

ـ يا سلام .. ياسلام .. ياسلام !

ـ عاجبك يا مولاتى ؟

ـ هايل ! رائع ! مدهش ! جنان !

وتحيد ببصرها لتنظر الى وكأنها ترانى للمرة الاولى ، لكى تأخذ فكرة عن الرجل الذى جادت عبقريته بهذه التحفة المستحيلة . ثم ترد بصرها الى التمثال وقد بدأ عليها شىء من الحيرة :

ـ لكن عاملنى حزينة كده ليه ؟

ـ موش انا يا مولاتى اللى عملتك حزينة

ـ يعنى انا شكلى حزين كده ؟

فأريد ان اقول لها ـ ولا افعل طبعا ـ ان حزنى انا هو الذى ربما يكون قد انعكس على صورتها ، وحزنى على هذا الجمال الذى ليس لى سوى ان احيه صامتا

وتواصل هى تأمل التمثال ثم تقول :

ـ انا موش ح اسيبه هنا . ح انقله فى قصرى الخصوصى

ـ لكن مولاتى عايشة هنا

ـ موش بعد النهارده . انا كنت مستنية لما التمثال يخلص . وتشير

الى خارج المكان :

ـ موش شايفه هو وامه عاملين ايه ؟

فارتعد قلبى بشدة وانا اقول :

ـ بس فيه حاجة يا مولاتى .

لحظة من التردد ثم أضيف .

ـ التمثال ناقصه شوية رتوش ..

فتصوب الى بعينيها الفاتنتين نظرة طويلة صامتة ، ولمسة مكر تتوارى فيها وهى تقول بابتسامة مغرية :

ـ ماتيجى تعملها هناك ؟

وتتركنى وتبتعد ، غير ناسية قبل ان تخرج ان تلتفت مودعة اياى بابتسامة عذبة من فوق كتفها . وعواطف جياشة تجرفنى ، ودق شديد فى قلبى لا استغرب ان يصل صوته الى سوبيلو ليوماس !

فهناك فى قصر الحلوة الخاص لا اشك فى ان العمل سيكون امتع منه هنا وسط مجريات التاريخ ، وذات يوم فى اواخر الاصيل قد نجتمع حول تمثالنا المشترك لكى نشرب نخبا او نخبين من النبيذ الحلو الذى علمنا اوزيريس صنعه فأحسن تعليمنا . وعندئذ سوف اشعر بأن عيون الحلوة فى حاجة ماسة الى شىء من الرتوش ، ومنها اقترب كما فعلت من قبل لأنهل من عطرها ومن الزرقة السابحة فى بياض العين . واختلاجة جديدة حلوة فى شفتيها تدعونى الى تتويج علاقتنا بما هى جديرة به ، بينما ينحدر آتون خلال قوس قزح من السحب الملتهبة ليرتاح فى افقه الغربى !

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب
٨٨ / ٤٥٥٤

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم